الفصل الثانى

فلسفته ومذهبه الاجتماعى

١

فلسفة التاريخ

ينظر سان سيمون إلى التاريخ الإنسانى باعتباره وحدة متكاملة مستمرة ، فكافة الأحداث التى مرت بالإنسانية أو التى سوف تقع فى المستقبل تكون وحدة واحدة مستمرة ترمز بدايتها للماضى وتعبر نهايتها عن المستقبل . وهكذا يمكننا عن طريق الدراسة التتبعية للتفكير الإنسانى منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا ، كشف الخطوات الحقيقية التى يمكن أن يخطوها التفكير الإنسانى فى اتجاهه التقدمى العلمى نحو سعادة الانسانية (١) .

ويذهب سان سيمون إلى القول بأن وجود هذه السلسلة المتصلة من الأحداث التاريخية يجعل من الممكن وجود مكان ملحوظ لكل حدث مهما صغرت قيمته ومهما قلت أهميته فى هذه السلسلة من الأحداث . ويرى سان سيمون أن كل تنظيم سياسى وكل نظام اجتماعى يجب لكى يكون نافعا حقاً أن يشبع حاجتين :

أولهما : أن يكون مفيدا للمجتمع ، بمعنى أن يحقق للمجتمع فوائد إيجابية .

ثانيهما : أن يكون متناسقا مع الأوضاع القائمة فى المجتمع ، ومتفقا مع الأفكار والاتجاهات السائدة به .

ويؤكد سان سيمون أن هذا الشرط الثانى مع أنه غير مألوف كالشرط الأول إلا أنه ضرورى للغاية ، لأنه عن طريق هذا الشرط وحده تصبح النظم مقبولة ، إذ أنه لا يمكن أن يقوم أى تنظيم سياسى أو اجتماعى دون أن يكون متناسقا مع أوضاع المجتمع ، كما أنه لا يمكن أن تكون هذه النظم دائمة البقاء بالرغم من تغير الأفكار والاتجاهات فى المجتمع . ولا يمكن أيضا أن تكون هذه النظم الاجتماعية

---

(١) Mémoire sur la Science de l'homme (1813) Oeuvres choisies, t. II, p. 13.

والسياسية فى مستوى أرقى أو أدنى من مستوى الأوضاع القائمة بالمجتمع[١] .

فالنظم الاجتماعية والسياسية فى أى مجتمع تعطينا فى الحقيقة صورة فعلية للأوضاع القائمة فى هذا المجتمع فى فترة زمنية معينة ، وتلقى الضوء على الاتجاه الفكرى والتيارات الاجتماعية والأخلاقية فى الفترة التى قامت فيها هذه النظم واستقرت.

هذه هى القيمة الحقيقية والفائدة الأساسية للدراسات التاريخية فى نظر سان سيمون لأنه « لايمكن الوصول إلى معرفة مؤكدة عن العناصر الحقيقية للوضع الحاضر إلا عن طريق الملاحظة الفلسفية للأحداث الماضية[٢] » .

وفى بحثه عن « إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » (١٨١٤) يؤكد أن الإنسانية تسير دائما نحو التقدم المطرد والسعادة الحقيقية وأن « العصر الذهبى للإنسانية لم يكن أبداً وراء ظهورنا ، وإنما هو ماثل أمامنا ، ماثل فى تحسين الوضع الاجتماعى فآباؤنا لم ينعموا به قط ، ولكن أطفالنا سوف يسعدون به يوما ما . ويقع على عاتقنا نحن أن نمهد لهم الطريق إليه [٣]» .

ويحاول سان سيمون فى هذا المؤلف أن يستعرض التطور التاريخى للإنسانية ، فيهمل الأحداث التاريخية والوقائع الحربية وتاريخ الملوك ، وينصح بأن نبحث فقط عن الصفات الأساسية للمعرفة ولروح التفكير فى كل قرن ، وأن نتعرف البواعث الحقيقية للثورات والنتائج الاجتماعية المترتبة عليها ، فهذه الأمور وحدها هى التى تفسر التاريخ وهى التى تضفى على كل قرن صفاته المميزة . فالقرن السادس عشر مثلا كان يتميز برجال اللاهوت أو على الأقل كان هذا هو اتجاه التفكير فى ذلك القرن ، فكان أغلب الحكام ينصب اهتمامهم على المشاكل المتصلة بالعقائد الدينية . وفى القرن السابع عشر ازدهرت الفنون الجميلة وبدأت تظهر

---

(١) الصناعة ، المجلد الرابع (١٨١٨) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٩ ص ١٣٩ و ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، الجزء ١٩ ص ١٤ .

(٣) فى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى (١٨١٤) — فى المؤلفات الكاملة لسان سيمون وأنفانتان ص ٢٤٧ و ٢٤٨ .

روائع الأدب الحديث . وكتاب القرن الثامن عشر كانوا فلاسفة حاولوا أن يبينوا أن النظم الاجتماعية الهامة كانت قائمة على أحكام غير سليمة وعلى الخرافات ، وأرادوا أن يخلصوها من هذه الخرافات والقوى التى تنشأ عنها . ويرى سان سيمون ضرورة اهتمام كتاب القرن التاسع عشر بالمسائل السياسية ، فكل شىء ينطق بأن الاهتمام بمعالجة المسائل السياسية هو محور أهداف هذا العصر . ففلسفة القرن الثامن عشر كانت فلسفة ثورية فى حين أن فلسفة القرن التاسع عشر يجب أن ترمى إلى التنظيم[١] .

فكأن فلسفة التاريخ عند سان سيمون تقوم على البحث عن الدوافع والأسباب التى تميز أحداث التاريخ وتلونها بلون خاص . فمن دراسة الأسباب والدوافع لا يصبح التاريخ مجرد تسجيل للوقائع الحربية ولحياة الولاة والحكام والملوك ، بل يصبح التاريخ سجلا للتطور الاجتماعى وصورة لا يكتنفها الشك لتفكير الشعوب وعاداتها وتقاليدها . ويمكن عن طريق المقارنة العلمية تحديد العوامل والظروف التى إذا اجتمعت يمكن أن تؤدى إلى أحداث من لون خاص .

وفى بحثه عن « الجاذبية العامة » (١٨١٣) وفى الجزء الثانى من « المنظم » (١٨٢٠) يذهب سان سيمون إلى القول بأن التاريخ الحقيقى للإنسانية هو تاريخ العلوم[٢] لا تاريخ الملوك والأمراء أو تاريخ الوقائع والحروب . فالتاريخ الذى يكتفى بتسجيل حياة الملوك والأمراء وتسجيل الوقائع الحربية والفتوحات العسكرية لا يعنى شيئا بالنسبة للتقدم الإنسانى ولكننا مع الأسف لا نرى ولا نقرأ سوى تاريخ واحد هو تاريخ الملوك والحكام ، « ولم يتخذ أى مؤرخ للآن وجهة نظر عامة ، ولم يقم أحد للآن بإعداد تاريخ الجنس البشرى ، وأخيرا لم يقل أحد للملوك هذا هو ما سوف ينتج مما قد حدث ، ها هو نظام الأشياء التى سوف تقودكم إليها الأضواء ، ها هو الهدف الذى يجب أن توجهوا نحوه ممارسة السلطة الواسعة التى

---

(١) نفس المرجع السابق ، الجزء ١٥ ، ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) بحث عن الجاذبية العامة (١٨١٣) فى مؤلفات مختارة الجزء الثانى ص ٢٣ .

بين يديكم[١] » . فالتاريخ بصورته الراهنة — فى نظر سان سيمون — لا يعد دليلا كافيا للملوك ولا للأتباع ، فهولا يمكن فريقا منهما من استنباط ما سيحدث فى المستقبل مما حدث فعلا ، فى حين أن الصفة التفسيرية للتاريخ — التى تعد حجر الزاوية فى التاريخ العلمى — هامة جداً ، إذ أنها تتيح إدراك التاريخ الحاضر وفهمه ووضع الأسس التى تتبع فى المستقبل .

ويعيب سان سيمون على المؤرخين أنهم — حتى يومنا هذا — لم يوجهوا اهتمامنا نحو سير الحضارة . ولهذا فإنه يلتبس علينا الأمر إذا ما فحصنا أحداث الماضى فى ضوء ما يواجهنا من علاقات ، مع أن كافة التغيرات الكبرى التى وقعت فى التاريخ كانت نتيجة لإعداد طويل قبل أن تبدأ فى الظهور . وكانت النتيجة الفعلية لذلك أننا نجهل اليوم حقيقة التقدم المتتابع للفكر الإنسانى[٢] .

ويبدى سان سيمون أسفه لأن التاريخ ظل حتى أواسط القرن الثامن عشر مجرد ترجمة لحياة رجال السلطة ، ولم تكن الشعوب تظهر فى هذا التسجيل إلا كأدوات أو كضحايا لاستكمال الصورة المطلوبة ، ولم يكن هذا التاريخ يتضمن إلا بعض النبذ القصصية المبعثرة عن حضارة الشعوب . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر « كانت الملاحظات متجهة بصفة عامة نحو تفكير أفضل ، ولكنها على الرغم من ذلك ظلت تتسق بنفس الطريقة ، كحال قلعة قديمة يعاد توزيعها الداخلى على صورة حديثة ، بينما أن التصميم والمظهر الخارجى يظلان على طرازهما القوطى » . فسان سيمون يقول إن الإصلاح اتجه إلى المادة نفسها التى يصاغ منها التاريخ ولم يتجه إلى الطريقة التى تتبع فى صياغة التاريخ ، فالأحداث التاريخية لا تربطها أية نظرية علمية[٣] .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن التاريخ لا يعدو أن يكون مجموع

---

(١) نفس المرجع السابق . الجزء الثانى ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٢) المنظم . فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ٢٠ ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق . الجزء ٢٠ ص ٦٩ — ٧٣ .

المعارف العلمية ، فإذا كان « قد أسيء إعداده فلا شك أن الشعوب والملوك يكونون قد ارتكبوا كثيرا من الأخطاء ، ولن ينفكوا عن ارتكابها طالما أن التاريخ سوف يظل سيء الإعداد[1] : فالتاريخ إذا لم يعتمد على الملاحظة العلمية لتطور الحضارة والعلوم ، فإنه سيظل متخلفا عن باقى العلوم ويصبح من المحال النهوض بالشعوب وتبصيرها بآفاق جديدة من المعرفة .

ويلاحظ أن سان سيمون يهتم بالصفة التفسيرية للتاريخ ، وهو بهذا يعتبر الممهد لفلسفة التاريخ عند كارل ماركس . فأحداث التاريخ فى نظر سان سيمون ليست إلا تفسيرا لأحوال المجتمع ونظمه ومستوى التفكير فيه ، وإن كان ماركس يرى أن النظم الأخلاقية والسياسية والحالة الحضارية ليست إلا نتيجة للحالة الاقتصادية ، فإن سان سيمون لا يرجع أحداث التاريخ إلى الحالة الاقتصادية وحدها ولكنه لا يغفل أهمية الجانب الاقتصادى وعلى الأخص فيما يتعلق بالملكية الفردية .

وهو لا يجعل الأحداث التاريخية تشتق وجودها وكيانها نتيجة لسبب واحد مهما كانت أهمية هذا السبب ، وإنما يقول بتعدد الأسباب المفسرة للتاريخ فهذه العوامل مجتمعة هى التى تفسر التاريخ ، لان تقابل كل عامل مع العوامل الأخرى وتدافعها تارة وتصارعها تارة أخرى هو الذى يؤدى فى النهاية إلى قيام الظواهر الاجتماعية . والتاريخ لا يفسر بظاهرة واحدة من الظواهر الاجتماعية مهما بلغت قوتها أو أهميتها وإنما بمجموع الظواهر الاجتماعية مجتمعة .

ويذهب سان سيمون فى مؤلفه عن « إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » (١٨١٤) إلى القول بأن التطور التاريخى للملكية يؤكد أن نظم الملكية تسير دائما وفقا للمستوى العقلى والعلمى فى كل عصر . فالملكية تعبر فى كل مرحلة من مراحل التاريخ عن معانى مختلفة . ففى العصر الإقطاعى الحربى مثلا كانت الملكية تنتقل عن طريق الميراث لأنها قامت على الحروب والسلب والاغتصاب أما اليوم فإن الملكية يجب أن يحصل عليها الفرد نتيجة لمميزاته الشخصية لا نتيجة

---

(١) نفس المرجع السابق . ص ٦٩ .

لمولده أو لعنصره لأن توارث الثروات ينتهى بالسيطرة والتحكم فى ملكية وسائل الإنتاج التى تؤدى إلى استغلال الطبقة العاملة ، وهذا ما لا يتفق مع طبيعة العصر ولا مع الدور الفعال الذى تؤديه الطبقة العاملة فى السير بالمجتمع فى طريق التقدم .

ولهذا يرى سان سيمون « أنه لا يمكن وجود أى تغير فى النظام الاجتماعى دون أن يحدث تغير فى نظام الملكية »[1] . فقانون التقدم الذى تتجه نحوه الإنسانية يميل إلى إقرار نوع من النظام الذى ترث فيه الدولة — لا الأسرة — من الثروة ما يطلق عليه رجال الاقتصاد « جوهر الإنتاج » وهو لا يحدث نتيجة لشيوع فى الثروة ، ولا نتيجة لتحديد فى المقدرة على التملك ، ولكن نتيجة لحق جديد هو حق كل فرد تبعا لمقدرته ولكل مقدرة تبعا لما تحققه من أعمال .

والانتقال إلى النظام الجديد للملكية لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجى لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالعمل المستمر والحماس وتقدير أهمية هذا التحول . والقوة الجديدة التى يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الجديد للملكية هى « القوة الإنتاجية » .

فالملكية التى يحصل عليها الفرد نتيجة لمميزاته الشخصية تؤدى إلى تلاشى العادات والميول غير الاجتماعية التى تصبح موضعا للامتعاض والكراهية ويحل محلها الشعور بقيمة العمل وقدسيته ، ويصبح التفانى والعبقرية هما المقياس الأساسى للملكية . فتحويل نظام الملكية بحيث يساير المقتضيات الأخلاقية والاجتماعية ، هو حجر الزاوية فى فلسفة التاريخ عند سان سيمون . فهو يعتبر أن الأرض أداة للعمل وأن الدولة هى المالك الوحيد لها ، وهى التى تقوم بتوزيع الدخل على الأفراد كل بحسب مقدرته حتى يتم توزيع الإنتاج على كل فرد بحسب عمله .

والملكية الفردية — فى نظر سان سيمون — ليست إلا عادة سيئة ، وأنه لا يمكن أن تستمر مثل هذه العادة السيئة فى وقت تقدمت فيه العلوم والأخلاق الإنسانية .

---

(١) فى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى (١٨١٤) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان : الجزء ١٥ ، ص ٢٤٢ .

وأنه لا يمكن على الإطلاق أن يتم أى تغير فى النظام الاجتماعى دون أن يمهد إلى ذلك تغير فى نظام الملكية وهنا تحدث الثورات . ويشرح سان سيمون الدور الذى يمر به هذا التغير فيقول :

إن « الحماس فى سبيل الصالح العام يمكن أن يساعد على قبول التضحيات التى يستلزمها هذا التغيير ، وهذه هى أول مرحلة فى كافة الثورات ، ولكن سرعان ما يظهر الندم ورفض التضحية ، وهذه هى المرحلة الثانية . وعندئذ لا يمكن التغلب على مقاومة الملاك إذا لم يتسلح غير الملاك ، ومن هنا تقوم الحروب الأهلية وأحكام النفى الظالمة والمذابح[1] » .

وعلى هذا فإن سان سيمون يرى أن الصراع من مستلزمات التقدم ، وهو فى هذا يبدو متأثرا بفلسفة التاريخ عند ترجو . فهذا الصراع هو الذى يدفع الإنسانية إلى الأمام ويساعدها على التقدم . ولكن الصراع فى نظر سان سيمون لا يعنى استخدام القوة أو العنف وإنما يعنى التسلح بالمعرفة والعلوم ، فهو يقول : إننا إذا استرجعنا أحداث التاريخ نجد أن طبقة الصناع كانت مستعبدة استعبادا تاما من طبقة المحاربين فى العصرين اليونانى والرومانى . ثم بدأت طبقة الصناع تتحرر شيئا فشيئا كلما توغل الغزاة فى الريف ولم يصبح الصناع المستقرون فى المدن تحت السلطان المباشر والمستمر لهؤلاء الأسياد . ثم أصبحت الطبقة الصانعة اليوم فى حالة تمكنها من تولى السلطة العامة ، ولكنها لا تزال محرومة من حقوقها .

يرجع سان سيمون ذلك إلى أن طبقة الصناع كان يجب أن تصارع وتستمر فى صراعها مع الطبقات الأخرى الإقطاعية أو العسكرية التى وضعت يدها على الحكم ، لكى تحصل على حقوقها كاملة .

ويؤكد سان سيمون أننا إذا نظرنا إلى التطور التاريخى للإنسانية فإننا سوف نجد أن الصراع هو الذى يمهد الطريق إلى التقدم . فمنذ القرن الرابع عشر وقع

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ٢٤٢ .

صراع مكشوف بين النظام الصناعى والنظام الإقطاعى ، كما وقع صراع بين رجال الدين من جانب والعلماء ورجال الفكر من جانب آخر . وقد تزايد[٦] هذا الصراع فى القرن السادس عشر فى داخل الكنيسة الكاثوليكية مما ساعد على قيام الإصلاح البروتستانتى . كما تزايد الصراع بين طبقة العسكريين وطبقة الصناع مما ساعد على ظهور طبقة جديدة هى طبقة المشرعين والميتافيزيقيين .

ويتبين تفكير سان سيمون العلمى الاجتماعى من نظرته إلى الصراع والثورات . فالصراع فى نظر سان سيمون يجب أن يبدأ بصورة سلمية ، فإذا لم يفلح الصراع السلمى فلا مناص من قيام الثورات . والثورة فى نظره — كما هو الحال عند ترجو — لا تعنى الفوضى وإنما تهدف إلى إيقاف الظلم والاستبداد ، وإزالة عوامل التخلف والسير بالإنسانية فى طريق الارتقاء والتقدم . فالثورة فى الحقيقة لا يمكن أن تفتعل ، ولا يمكن أن تكون شيئا دخيلا على المجتمعات الإنسانية ، وإنما هى حالة تنبع عن حاجات المجتمع وظروفه . ومهما كانت نتائج هذه الثورات فإنها تسير بالإنسانية نحو التقدم .

وبالرغم من أن سان سيمون يمهد فى كثير من أفكاره لمبادئ ونظريات كارل ماركس ، إلا أن سان سيمون يرى أن التحول الذى تقتضيه النظم الاجتماعية يمكن أن يتم فى سلام وهدوء لو تغيرت نظم الملكية بما تقتضيه الأحوال الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية فى المجتمع .

وبالرغم من ذلك ؛ فإن هذا النظام الجديد للملكية لا يؤدى إلى زوال الطبقية ، وإنما يتيح نوعا من الطبقية الصناعية ، لأن التنظيم الجديد يستلزم وجود رجال قادرين على تمييز العناصر الضرورية للإنتاج من العناصر غير المنتجة ؛ هؤلاء الرجال يكونون ما يسمى «بالقيادة الصناعية» وهؤلاء يجب تعيينهم بواسطة الدولة المالكة لوسائل الإنتاج .

فآراء سان سيمون عن التحول الاجتماعى ، وخاصة التحول فى نظام الملكية تتفق تماما مع وجهة النظر التى ينادى بها علم الاجتماع ، فهو يرى أنه لا بد من

وجود تغير جوهرى فى نظم الملكية ، وأن هذا التغير لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجى عن طريق العمل والحماس والإيمان بأهمية هذا التغير . وعلم الاجتماع يقر التحول الاجتماعى فى هدوء دون الالتجاء إلى العنف والثورات . وهذا التحول الهادئ يستلزم فحص المشكلة وتعرف جوانب الشذوذ فيها ومحاولة تشخيص الداء ثم الاتجاه فى إصلاحه وجهة سلمية ، وهذا هو ما اتجه إليه سان سيمون عندما أوضح أن القوة الوحيدة التى يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الجديد للملكية — النظام الذى يقوم على إلغاء توارث الثروات واعتبار الدولة الوارث الوحيد لها — هذه القوة الوحيدة ليست قوة عسكرية أو قوة مسلحة وإنما هى « القوة الإنتاجية » . فعن طريق العمل المستمر والإنتاج المتواصل تتمكن الطبقة الصانعة من أن تؤكد وجودها وتثبت أهميتها وتبرز مكانتها ، وعندئذ تصبح الملكية أمرا يعتمد على مميزات الفرد الشخصية دون اعتبار لحسبه ونسبه ، وبهذا تهيأ العقول والأفكار لتقبل الاتجاه الجديد نحو توريث الدولة لما يعرف بجوهر الإنتاج ، والسماح للفرد بالتملك ملكية شخصية تزول بمجرد وفاته مباشرة .

ويذهب سان سيمون فى مؤلفه الذى يحمل عنوان « تعاليم رجال الصناعة » (١٨٢٣) إلى القول بأن الأوضاع الطبقية فى أى مجتمع لا بد أن تساير التقدم الذى تتجه إليه الإنسانية فى سيرها عبر التاريخ . فالتنظيم الطبقى يجب أن يتفق مع فائدة كل طبقة والخدمات التى تقدمها للجنس البشرى وللتقدم الإنسانى .

« فحتى اكتشاف البارود ، كان على طبقة النبلاء القدامى أن تمارس سلطات سياسية واسعة ، لأنها كانت تؤدى خدمات جليلة للمجتمع ؛ فكان من الضرورى أن تكون على رأس الأمة ، لأنها كانت الطبقة التى تحافظ على الكيان القومى . فطبقة النبلاء كانت إذن أكثر الطبقات جهدا فى العمل فى فرنسا »[1] . أما اليوم وقد ساعد اكتشاف البارود على أن يجعل كل مواطن فى

(١) فى النظام الصناعى (القسم الثانى) (١٨٢١) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ٢٣ ص : ٣٦ ، ٣٧ .

وضع يمكنه من أن يحمل السلاح ويزود عن أرض الوطن ، فلم يعد هناك أى حق للنبلاء لكى يظلوا على رأس الأمة ، ويجب بالضرورة أن يشغل من هم أقدر وأكثر منهم فائدة للمجتمع مكان الصدارة فيه .

ويسخر سان سيمون من سوء التنظيم الطبقى فى فرنسا فيقول فى مقال مشهور له باسم « قصة سان سيمون الرمزية» La parabole de Saint-Simon فلنتخيل أن فرنسا تفقد فجأة الخمسين الأول من علماء الطبيعة بها ، والخمسين الأول من علماء الكيمياء ، والخمسين الأول من علماء الفيزيولوجيا ، والخمسين الأول من رجال المال ، والمائتين الأوائل من تجارها ، والسمّائة الأول من رجال الزراعة بها ، والخمسين الأول من رجال الصلب والحديد بها . . . إلخ ، فإن المجتمع سوف يغدو جسدا بلا روح فى اللحظة التى يفقد فيها هؤلاء الرجال ، وسوف يشعر بالنقص أمام المجتمعات التى يقف منها اليوم موقف الند .

ولنقل أن فرنسا تحتفظ بالعباقرة من رجالها فى ميادين العلم والفن والصناعة ، ولكنها تصاب بكارثة فتفقد فى نفس اليوم السيد شقيق الملك ، والسيد دوق أنجولم ، وأنها تفقد فى نفس الوقت كافة ضباط الحرس العظام ، وجميع وزراء الدولة ومستشاريها ، وكافة الكرادلة والرؤساء الدينيين ، وجميع المديرين ومساعديهم وبالإضافة إلى كل ذلك أغنى عشرة آلاف مالك من بين الذين يعيشون عيشة النبلاء .

هذا الحادث لا شك أنه يهز مشاعر الفرنسيين ، ولكن هذه الخسارة لثلاثين ألفا من المواطنين ذوى الشهرة والمكانة فى الدولة لا تسبب سوى آلاما عاطفية لأنها لن تسبب أى أضرار سياسية للدولة[1] .

ولهذا يرى سان سيمون أن يعطى لكل طبقة من المكانة ما يتفق مع فائدتها الحقيقية للمجتمع دون اعتبار للحسب أو للنسب أو للمركز الاجتماعى ، وأن تهيأ الأسباب التى تساعد على رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة والتخلى عن

(١) المنظم ، فى مؤلفات سان سيمون وأتباعه . الجزء ٢٠ ص ١٧ — ٢٦ .

الأساليب المنافية للإنسانية فى استغلالها لصالح أصحاب رؤوس الأموال . وعلى الحكومات أن ينصرف اهتمامها إلى تحسين حال هذه الطبقة التى لا تلقى أى عناية ، وأن ينظر إليها كعنصر أساسى فى تقدم الإنسانية . لأن الجنس البشرى لن يسير سيرا حثيثا فى طريق التقدم ما دام أنه منقسم إلى معسكرين غير متعادلين هما معسكر أصحاب الأعمال من جانب ومعسكر أصحاب الأيدى العاملة من جانب آخر . ذلك أن المعسكر الأصغر عددا يستخدم دائما كل قوته فى السيطرة على المعسكر الأكبر عددا .

يبدو سان سيمون فى تفكيره عن الطبقات الاجتماعية — متأثرا بأفكار فولتير التى تقول بأن نظام الطبقات ضرورة اجتماعية — فالطبقات من مستلزمات الحياة فى المجتمع الإنسانى وأنه لا يمكن قيام مجتمع تنعدم فيه الطبقات أو وجود مجتمع تسود فيه طبقة واحدة ، وأن هذا النظام الطبقى يجب أن يقوم على العدالة الاجتماعية بحيث لا تطغى طبقة على أخرى . ويقول سان سيمون أن « نقص الحيوية والنشاط لدى الصناعيين من أجل مصالحهم الاجتماعية ، وعدم ثقتهم فى قوتهم وكفاءتهم السياسية ، كل هذا يرجع إلى عادات التبعية التى اكتسبوها تحت ظل السيطرة الطويلة للنبلاء والعسكريين »[1] . ولكنه يبدو متفائلا فيؤكد أن هذه السيطرة قد تحطمت أو كادت أن تتحطم كلية ، ولهذا فإنه مما لا شك فيه أن تختفى عادات التبعية شيئا فشيئا بصورة تلقائية .

ويأمل سان سيمون أن تثق الطبقة الصانعة فى قوتها وشجاعتها وأن ينمو فيها الطموح والإحساس بالتضامن الطبقى . والطبقة الصانعة فى نظر سان سيمون يجب أن تكون على رأس الأمة « لأن مصالحها الخاصة تتفق تماما مع المصلحة العامة ، بقوة الأمور وحدها »[2] .

فمن رأى سان سيمون أن فى وجود النظام الطبقى تأكيدا لطبيعة الحياة الاجتماعية

---

(١) الرجل السياسى (١٨١٩) الملزمة الثامنة ص ٢٧٩ .

(٢) الصناعة ، المجلد الرابع (١٨١٨) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ١٩ ص ١٦٩

ولهذا فهو لا يهاجم هذا النظام فى ذاته ، وإنما يهاجم سوء التنظيم نفسه ويدعو إلى إعادة التوزيع الطبقى بحيث تجد كل طبقة المكان الذى يتفق مع فائدتها للمجتمع والذى يتفق مع مدى ما تقدمه من خدمات للمجموع . وأن هذا التنظيم يتحقق عن طريق تهيئة أسباب الحياة السوية أمام الطبقة العاملة وعدم استغلالها لصالح أصحاب رؤوس الأموال .

وهنا تتبين لنا نقطة هامة فى فلسفة التاريخ عند سان سيمون وهى محاولته تأكيد أهمية العنصر الإنسانى وعدم ذوبانه أمام التنظيم الآلى الذى ظهر بصورة جارفة فى مستهل القرن التاسع عشر ، فهو يهدف من فكرته عن التنظيم الطبقى إلى تحرير الإنسان من رق أخيه الإنسان من جانب ، وإلى تخليصه من رق العادات والتقاليد التى تعطى لكل شخص مكانا طبقيًا يتناسب مع حسبه ونسبه دون أن تعطى أى عناية لعمله أو لإنتاجه أو لكفايته العقلية من جانب آخر . وعلى هذا فإن فلسفة سان سيمون التاريخية تسير فى الاتجاه الذى سار عليه رجال الموسوعة العلمية وهو تأكيد أهمية الإنسان والاعتزاز بقدراته العقلية والذهنية ، وبأن المعرفة والتثقيف هما الوسيلة الفعالة للنهوض بالإنسان وتمكينه من نفسه وتهيئة السبيل أمامه للسير فى طريق التقدم .

٢

العلم والمجتمع

قلنا إن سان سيمون يرى أن التاريخ الحقيقى للإنسانية هو تاريخ العلوم ، وأن الوصول إلى إقامة علم للإنسان يستلزم الوقوف على سير العلوم وتطورها . ولهذا فهو يدعونا أن نعود بذاكرتنا إلى نوع التعليم الذى تلقيناه فى طفولتنا : « لقد كان انتباهنا موجها نحو تاريخ اليونان والرومان ، وكانت الأفكار الجمهورية تراود مشاعرنا دون أن نتمكن من التعبير عنها ، وبالرغم من ذلك فقد ساعدنا هذا التعليم على أن نصبح ثوريين ، ولكن بالرغم من أننا وصلنا إلى هذه الحال فإن الطريقة التى تلقينا بها تعليمنا لا تتفق والمستوى الذى أقامته الثورة ، ولهذا وجب أن تصبح مبادئنا التعليمية فى مستوى مبادئ الثورة نفسها[1] » .

ولكى يتيسر تزويد أطفال الجيل بمبادئ التربية الحديثة ، فإنه من اللازم لنا أن نصهر من جديد مجموع معرفتنا العلمية والأدبية ، بمعنى إعادة تنظيمها فى موسوعة علمية جديدة . ويعتقد سان سيمون أن انتشار العلم والمعرفة من أهم الوسائل لتقريب القلوب وتوحيد الإنسانية ، وأن الموسوعة الجديدة هى الوسيلة الفعالة للقضاء على الحروب وعلى فتك الإنسان بأخيه الإنسان . ففى بحثه عن « علم الإنسان » يوضح سان سيمون أن الحرب العادلة التى تقوم بها فرنسا الثائرة ضد أوربا الإقطاعية قد تحولت إلى حرب غير عادلة ، حرب تقوم على السلب والنهب والاغتصاب . ولهذا يجب أن يتركز اهتمام الإنسان على العلوم لا على الحروب ، وأن ينشأ علم للإنسان المثالى فى كافة مظاهر نشاطه .

ويسعى سان سيمون جاهدا للمساهمة فى تقدم العلوم ونموها ، ولهذا فهو يجيب فى « رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه » على سؤالين كثيرا ما كانا

---

(١) تاريخ الإنسان (تنبيه) (١٨١٠) ص : ٢٤٠ .

يترددان على ألسنة الرأى العام : من هو العالم ؟ وما هى الأسباب التى تجعل من العلماء قادة الإنسانية ؟ .

أما عن السؤال الأول فيقول إن العالم هو الرجل الذى يتنبأ بالأمور . لأن العلم يقدم له الوسيلة المفيدة لهذا التنبؤ . فعن طريق التنبؤ بسير الكواكب أمكن الوصول بطريقة مؤكدة إلى تحديد المواقع المختلفة من الأرض . كما أن التنبؤ بمواقع النجوم هو الذى يحدد سير الملاحة فى أكثر البحار اتساعا .

هذا التنبؤ العلمى — فى نظر سان سيمون — هو الذى يجعل العلماء يتخذون بالضرورة مكان القيادة فى المجتمع . ولكنه يستدرك فيقول : « لا تعتقدوا إننى أريد أن أدخل فى روعكم أن العلماء يمكنهم أن يتنبأوا بكل شىء . لا ، بالتأكيد ، فهم لا يستطيعون أن يتنبأوا بكل شىء . بل إننى واثق أنهم لا يستطيعون أن يتنبأوا بصورة مؤكدة إلا بعدد محدود من الأشياء ، ولكنكم مقتنعون مثلى أن العلماء كل فى جانبه ، هم الأشخاص الذين يمكنهم أن يتنبأوا عن كثير من الأشياء ، وهذا شىء مؤكد . ما دام أنهم لا يحصلون على سمعتهم كعلماء إلا عن طريق البراهين التى تظهر من تنبؤاتهم . وهذا هو على الأقل ما يحدث اليوم ، ولم يكن الحال كذلك دائما »[1] ويعنى سان سيمون بذلك أن العلماء لم يكونوا أكثر قدرة على التنبؤ فيما مضى حينما كان العلم خاضعا للسحر واللاهوت .

ويؤكد سان سيمون أن أى عمل علمى مثمر لا يتأكد إلا إذا كان منظما تنظيما جمعيًا . ولهذا فهو يرى ضرورة إبعاد العلماء عن سيطرة الدولة وسيطرة الملاك بضمان وسائل الحياة الكريمة لهم . ويقترح سان سيمون أن تمول المشروعات العلمية وتدفع مكافآت العلماء من التبرعات الشعبية العامة فهو يقول : « افتحوا اكتتابا أمام مقبرة نيوتن ، واكتتبوا فى سرية تامة بالمبلغ الذى ترغبون فيه[2] » .

---

(١) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ١٥ ص : ٣٨ — ٤٠ .

(٢) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ١٥ ص : ١١ .

ويذهب سان سيمون إلى حد أنه يترك للمواطنين الحرية فى اختيار ثلاثة من علماء الرياضة ، وثلاثة من علماء الطبيعة ، وثلاثة من علماء الفيزيولوجيا ، وثلاثة من رجال الأدب ، وثلاثة من الرسامين ، وثلاثة من الموسيقيين كل عام . وعلى كل مكتتب أن يجدد اكتتابه سنويًا ويجدد الأشخاص الذين يختارهم ، أو يجدد ثقته فيمن سبق له اختيارهم . « وبهذا الأسلوب يمكنكم أن تسلموا القيادة إلى هؤلاء الذين يعملون من أجل تقدم أنوارکم[1] » .

ويحاول سان سيمون أن يقف على حركة المعرفة العلمية ، فيقول إن هناك نوعين من الأعمال العلمية : أحدهما هو البحث عن الوقائع العلمية والثانى هو العمل على تحسين نظرياتها . فمن أصحاب الاتجاه الثانى نجد ديكارت ومن نحا نحوه ، ومن أصحاب الاتجاه الأول نجد نيوتن Newton ولوك Locke فالأول وصل إلى الجاذبية والثانى وصل إلى كمال الفكر الإنسانى .

ومن رأى سان سيمون أنه « من أجل تقدم العلم ، ومن أجل سعادة الإنسانية ومن أجل مجد الأمة الفرنسية ، فإن من واجب المعهد الفرنسى أن يعمل لتحسين النظريات ، وأن يعود إلى قيادة ديكارت[2] » .

ويذهب سان سيمون إلى القول بأن الآثار الناتجة عن العلم مؤكدة ولكنها بطيئة ، ولهذا فإن عددا قليلا من الناس يهتم بها ، فى حين أن القوة الحقيقية للعلم تطوى على مدى انتشارها بين عامة الشعب وعلى مدى تقبلها من هؤلاء العامة .

ومن المهم أن نكشف عن حقيقة ثابتة فى كتابات سان سيمون ، وهو أن أى موسوعة علمية يمكن أن ينضوى تحت لوائها كل ما هو غير دينى ، وقد كان هذا هو هدف أصحاب الموسوعة العلمية القديمة أمثال « دالمبير » و « ديدرو » Diderot. هذا الاتجاه يعتبره سان سيمون اتجاها علميًا لا تشوبه شائبة دينية ، ولكنه كان

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) مقدمة للأعمال العلمية فى القرن ١٩ (١٨٠٨) فى مؤلفات مختارة الجزء الأول ص ٥٨–٦٢ .

اتجاها سلبيًّا ، وهو لهذا يرى إنشاء موسوعة جديدة وضعية إنشائية . فالموسوعة القديمة لم تتمكن من استكمال تنظيم المذهب الوضعى كما يجب أن يكون . فمع أن أصحاب هذه الموسوعة قد حاولوا أن يجعلوا منها كتابا « يمكن أن يحل محل سفر التكوين ، وأن يكون فى مستوى أرقى منه من حيث التفاصيل العلمية ومن حيث الآراء العامة ومن حيث الفهم المنهجى[1] » ، إلا أن هذا الكتاب لم يقم إلا بتنظيم غير واف للمذهب العلمى بالرغم من أنه نجح تماما فى استبعاد الجوانب الوهمية التخمينية من أعماله .

كما أن سان سيمون يأخذ على الموسوعة العلمية القديمة أنها لم تدخل العلوم جميعها فى وحدة منهجية . ولهذا كانت مهمة العلوم غير محددة . وفائدتها غير واضحة ، مما يجعل من الضرورى تعرف أساسها المشترك إذا أردنا الاستفادة منها . والأساس المشترك فى نظر سان سيمون يجب أن يكون هو « العلم العام » أو « الفلسفة الوضعية[2] » .

ومن هنا اختلف النقاد فى تفسير مدلول العلم العام عند سان سيمون فبينما نجد أن دوركيم Durkheim يؤكد أن هذه الفكرة هى التى مهدت الطريق إلى فلسفة كونت الوضعية ، نجد أن هنرى جوهييه Henri Gouhier يقول إن كونت لم يضع العلوم مع الفلسفة فى مستوى واحد ولكنه يجعل من الفلسفة بحثا تركيبيًّا .

ويرى سان سيمون أن وحدة العلوم ترجع إلى النشاط الإنسانى فى صورتيه الجمعية والفردية ، ويتميز ذلك النشاط بأنه مادى أكثر منه نشاط روحى ، وهو يظهر فى الإنتاج الاقتصادى وفى الصناعة ، وفى الصراع ، وفى النظم الاجتماعية . ولهذا لن يتيسر لنا الوصول إلى مبدأ وحدة العلوم دون الالتجاء إلى المجتمع وتحليل الطريق الذى يسلكه فى سيره ، والوقوف على مكان العلوم فى النشاط الكلى العام للمجتمع .

---

(١) مشروع موسوعة علمية لكلود هنرى سان سيمون (١٨٢٠) نشر فى المجلة الاشتراكية عدد إبريل ١٨٩٩ .

(٢) راجع خطاب إلى ردرن Redern (١٨١١) الجزء الأول ص : ١٠٩ .

ومن المهم أن ندرك أن كلمة « وضعى » Positif وكلمة « فلسفة » Philosophie فى كتابات سان سيمون لها دلالة تختلف تماما عن دلالتها عند أوجست كونت . فكلمة « وضعى » عند سان سيمون تعنى فعال actif ، وملازم لطبيعة الشىء immanent، ومستقل استقلالا ذاتيًّا autonome ؛ وكلمة « فلسفة » تعنى دراسة النشاط الإنسانى فى جانبيه الفردى والجمعى ، وجانبيه المادى والروحى ، أو بمعنى آخر دراسة النشاط الإنسانى الشامل . وقد أخذت هذه الدراسة اسم « علم الإنسان » Science de l'homme أو « الفيزيولوجيا الاجتماعية Physiologie sociale وهذا هو ميدان علم الاجتماع .

ويؤكد سان سيمون أن النشاط الجمعى الإنسانى روحى ومادى فى الوقت نفسه ، وأنه لا يمكن أن نفصل هذين المظهرين المرتبطين ارتباطا وثيقا ، وأن كفاية الفكر الإنسانى فى الناحية الروحية والناحية المادية متعادل ، فهناك اكتشافات أمكن القيام بها فى أحد الجانبين أو كليهما ، وأن تقدم هاتين الكفايتين يساهم أيضا فى تقدم الحضارة[1] .

ويشير سان سيمون فى بحثه عن « الجاذبية العامة » (١٨١٣) إلى أن المادية والروحية ليسا إلا تجريداً للنشاط الجمعى الذى هو مجهود موحد ، فنحن نعتبر حتى الآن روحانيين هؤلاء الذين كان من الواجب أن نسميهم ماديين ، وماديين هؤلاء الذين كان من الواجب أن نعتبرهم روحانيين . فهل لا يعتبر تجسيد شىء مجرد نوعا من المادية ؟ وهل لا يعتبر استخلاص قانون من وجود الله نوعا من الروحية[2] ؟ » .

وفى بحثه عن « علم الإنسان » يتناول سان سيمون موضوع الفيزيولوجيا الاجتماعية بالدراسة والتحليل ، وينوه بما كان للعلماء فيك دازير Vicq d'Azyr وكابانى Cabanis وبيشا Bichat وكندرسيه Condorcet من فضل فى توجيهه إلى

---

(١) تعاليم الصناع : المجلد العاشر ص : ٤٤ .

(٢) بحث عن الجاذبية العامة ، المجلد الأول ص : ٢٣٨ و ٢٣٩ .

ضرورة قيام علم الإنسان على أساس الفيزيولوجيا الاجتماعية . كما أنه يخص بالذكر الدكتور « بوردن » Burdin والدكتور « بوجين » Bugin والمؤرخ « ألنر » Oelsner فهم الذين أفهموه ماهية الفيزيولوجيا . وكيف أن علم الإنسان يمكن أن يجد فيها أساسه أو قاعدته .

والفيزيولوجيا الاجتماعية فى نظر سان سيمون تمثل الجزء الأساسى للفيزيولوجيا العامة ، « التى تكون موضعا لاعتبارات أكثر أهمية من الفيزيولوجيا الخاصة وعلم النفس ، فهى تنظر إلى الأفراد كعناصر فى الهيئة الاجتماعية ، الذى تعنى بدراسة وظائفه العضوية بنفس الطريقة التى تدرس بها الفيزيولوجيا الخاصة وظائف الأفراد[1] » . ذلك لأن المجتمع ليس مجرد تجمع بسيط لكائنات حية تتحكم فيها الإرادة الفردية ، ولكنه عبارة عن آلة حقيقية منظمة تتعاون أجزاؤها فى سير المجموع . ولا يعدو تاريخ الإنسانية أن يكون تاريخ حياة العنصر الإنسانى ، أى فيزيولوجيا تطورات أعماره المختلفة .

والفيزيولوجيا الاجتماعية عند سان سيمون تعتمد على التاريخ ، وعلى الحضارة ، وعلى الإنتاج الاقتصادى والإنتاج الروحى ، وعلى صراع الجماعات والطبقات الاجتماعية ، ولا تعتمد إطلاقا على البيولوجيا .

وفى بحثه عن « علم الإنسان » يطلب منا سان سيمون أن نسترجع إلى ذاكرتنا الطريق الذى سلكه التفكير الإنسانى منذ نشأته ، وعلى الأخص منذ القرن الخامس عشر . إننا سوف نجد أن التفكير الإنسانى اتجه منذ هذا القرن إلى الاعتماد على الملاحظة ، فأصبح الفلك والطبيعة والكيمياء من علوم الملاحظة ، «ونستخلص من هذا بالضرورة أن الفيزيولوجيا العامة التى يمثل علم الإنسان الجزء الرئيسى منها ، سوف تعالج بالمنهج المتبع فى العلوم الطبيعية الأخرى ، وأنها

---

(١) مذكرات عن علم الإنسان (١٨١٣) فى مؤلفات مختارة Lemonnier (١٨٥٩) الجزء الثانى ص ١٨٠ .

سوف تدخل فى التعليم العام عندما تصبح وضعية[١] » . ذلك لأن العلم العام كان من الضرورى أن يعتمد على التخمين ما دام أن العلوم الخاصة كانت كذلك . ولكن عندما تصبح العلوم الخاصة وضعية ، فإن العلم العام سوف يكون وضعيًا بالضرورة . « وهذا ما سوف يحدث فى العصر الذى تكون فيه أسس الفيزيولوجيا وعلم النفس قائمة على وقائع تخضع للملاحظة والمناقشة[٢] » .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن قيام علم الإنسان سوف يؤدى بالضرورة إلى قيام تنظيم جديد فى نظم الدين والسياسة والأخلاق . ونظم التعليم أيضا . «لأن نظم الدين والسياسة العامة والأخلاق والتعليم العام ، ليست شيئا آخر سوى تطبيقات لنظام من الأفكار . أو — إذا فضلنا — ليست إلا نظاما منظورا إليه من زوايا مختلفة[٣] » .

ويتساءل سان سيمون « ما هى العقبة التى تعترض — حتى اليوم — قيام معرفة فيزيولوجية للمجتمعات الإنسانية ؟ » ويجيب على ذلك قائلا : إنه الصراع الذى وجد دائما بين عناصر الجسم الاجتماعى سواء بين الرؤساء ومستخدميهم ، أو بين الدولة والمجتمع الاقتصادى أو بين الطبقات الاجتماعية . ويؤكد أن المجتمع قد وصل الآن إلى درجة من النضج تمكنه من تعرف النظام الذى يلائمه . ولهذا فإن سان سيمون يؤكد أنه قد آن الأوان لإنشاء علم للإنسان ، وأن نقطة البداية فى إنشاء هذا العلم هى الفيزيولوجيا الاجتماعية .

ومن المهم أن نبحث عن السبب فى استخدام سان سيمون لاصطلاح « الفيزيولوجيا » وهل هناك ارتباط بين الفيزيولوجيا والبيولوجيا فى أفكار سان سيمون؟ يمكننا الوصول إلى جواب لهذا السؤال إذا رجعنا إلى كتاباته عن أهمية « فيك دازير » و « بيشا » و « كابانى » . فمن المعروف أن هؤلاء العلماء قد تناولوا

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .
(٢) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .
(٣) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

موضوع الفيزيولوجيا بصورة واسعة جداً، وحاولوا الوصول إلى نظرية للمجهود الإنسانى الشامل متضمنة الجوانب النفسية والأخلاقية والعلمية وكافة مظاهر النشاط الإنسانى. هذه الفيزيولوجيا التى اعتبرها فيك دازير وبيشا وكابانى كقاعدة للمجهود الإنسانى ، أصبحت الأساس المشترك لقيام علم الإنسان .

كما أنه من المهم أن نميز بين « الفيزيولوجيا »Physiologie وبين « الطبيعة » Physique . فالطبيعة تتناول بالدراسة الأجسام الخام ، بينما الفيزيولوجيا موضوع دراستها الأجسام المنظمة والحياة ، وعلى هذا فإن عنصر الحيوية والحياة فى ثورانها وسيرها ، هو الذى يميز علم الإنسان الذى هو « فيزيولوجيا سامية[1] » . Physiologie transcendante .

ومن رأى سان سيمون ، أن علم الأجسام المنظمة والحياة ينقسم إلى « فيزيولوجيا خاصة » تختص بدراسة نشاط وعمل الأعضاء فى مختلف الأجناس الحيوانية ومن بينها الجنس البشرى ، وإلى « فيزيولوجيا عامة » أو « فيزيولوجيا اجتماعية » تختص بدراسة الحياة والنشاط فى المجتمعات الإنسانية .

وإذا تعمقنا فى كتابات سان سيمون نجد ما يوضح لنا أن الفيزيولوجيا الاجتماعية بعيدة كل البعد عن البيولوجيا . فهو يذهب فى مقاله عن « التنظيم الاجتماعى » إلى القول بأننا « إذا نظرنا إلى الطريقة التى ينمو بها الأفراد والجنس البشرى ، من وجهة النظر الأخلاقية ووجهة النظر الجسمانية ، فإننا نجد أن هذا النمو يحدث بطريقتين مختلفتين ، ومع ذلك فهى تتجه نحو هدف مشترك[2] » .

وفى « رسائل إلى أحد سكان جنيف » يتكلم عن الفيزيولوجيا قائلا : « إنه على اعتبار علاقاتنا الاجتماعية بمثابة ظواهر فيزيولوجية، فإننى تصورت المشروع الذى أعرضه عليكم[3] » .

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

(٢) فى التنظيم الاجتماعى (١٨٠٤) مقال لم ينشر إلا بعد وفاة سان سيمون . مؤلفات سان سيمون وأنفانتان المجلد ١٠ ص : ١١٠ .

(٣) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) المجلد العاشر ص : ٤٤ .

فدراسة الفيزيولوجيا الاجتماعية عند سان سيمون هى فى الحقيقة دراسة وضعية للمجتمع فى حالة الحركة La Société en acte . ونتيجة للملاحظات الفيزيولوجية ، فقد تبين أن المجتمعات تخضع لقوتين أخلاقيتين يعملان بالتناوب ، ولهما نفس القوة ، إحداهما هى قوة العادة ، والأخرى هى التى تنتج عن الرغبة فى الابتكار . وبعد فترة زمنية ، تصبح العادات بالضرورة سيئة ، لأنها قامت تبعا لحاجات لم تعد اليوم مرتبطة بالحاجة الحقيقية للمجتمع . ولهذا يبدأ الشعور بالحاجة إلى أشياء جديدة ، هذه الحاجة تمثل الحالة الثورية الحقيقية التى تستمر حتى يأتى الوقت الذى يعاد فيه تكوين المجتمع بطريقة تتفق مع حالته وطبيعته .

ويذهب سان سيمون إلى القول بأن الفيزيولوجيا الاجتماعية يمكن أن يطلق عليها اسم « علم الحرية » Science de la liberté ما دام أن الحياة الاجتماعية تتضمن التجديد والإصلاح والتحفز والثورة . « فالتعلق بالحرية وحده لا يكفى . . وإنما نحن فى حاجة — بصفة خاصة — إلى علم للحرية[1] » وبالرغم من أن علم الحرية له حقائقه وتعميماته إلا أنه غير معروف إلا من عدد بسيط من الأفراد . وأننا « إذا أردنا أن نكون أحرارا ، فلننشئ حريتنا بأنفسنا ، ولا نحاول أن ننتظرها إطلاقا بطريقة أخرى[2] » .

من هذا يتبين لنا أن الفيزيولوجيا الاجتماعية بوصفها دراسة للنشاط الجمعى ، يجب أن تأخذ فى اعتبارها إلى جانب العادات ، دراسة أخرى على جانب كبير من الأهمية هى دراسة الطموح ، والاتجاهات ، والمشاعر ، والإرادة الجمعية ، والتحفز ، فى هذه الجوانب بصفة خاصة تصبح الفيزيولوجيا الاجتماعية علما للحرية الجمعية .

ويؤكد سان سيمون أن عصر العلوم اللاهوتية لم يعد يلائم ظروف المجتمع المتطور ولا طبيعة الحياة فيه ، فقد لاحظ عامة الشعب منذ زمن طويل أن أعمالهم اليومية لا اتصال لها على الإطلاق بالأفكار اللاهوتية ، وأن رجال الكهنوت

---

(١) الصناعة ، القسم الثالث ، ١٨١٨ خطابات إلى أمريكى ص : ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص : ٢١٢ .

لا يمكنهم أن يبصروهم عن حقائق هذه الأعمال فى جوانب الحرف أو الصناعات ، ومن هنا بدأوا يتخلون عن استشارة الكهنة ، وانصرفوا عنهم إلى رجال العلم . ولكن مما لاشك فيه « أن هذا الاتصال لا يزال بعيدا جدًّا عن أن يكون قويا بالدرجة التى يمكن أو يجب أن يكون عليها . وهذا يرجع لا إلى قلة رغبة العامة فى التثقف ، ولكنه يرجع إلى قلة الوسائل التى فى يديها [1] ». فالعامة — فى نظر سان سيمون — أكثر رغبة وتشوقا إلى التثقف من هؤلاء الكسالى الذين يقضون أوقاتهم فى اللهو وفى الصالونات ، ذلك لأن أعمال العامة بطبيعتها تدفعهم إلى الإحساس بأهمية التثقف . وقد ساعد إقبال عامة الشعب على التثقف إلى الإيمان بأهمية العلم وبفضل العلماء فى السير بالإنسانية فى طريق التقدم .

ويذهب سان سيمون فى بحثه عن « علم الإنسان » (١٨١٣) إلى القول بأن الإنسانية تمر فى تطورها بعصور ثلاث : الأول تخمينى يذهب من تعدد الآلهة إلى إله واحد . والثانى وسط بين التخمين والواقعية يذهب من تصور علة غير منظورة إلى تصور القوانين . والثالث واقعى يرمى إلى تفسير العالم بقانون واحد[2] » . وأن هذا العصر الأخير قد بدأ منذ فترة وجيزة .

ويقول سان سيمون أنه لما كانت العلوم هى الصورة الحقيقية للتفكير الإنسانى ، فإنها لا بد أن تمر — شأنها فى ذلك شأن كافة مظاهر التفكير الإنسانى — بهذه العصور الثلاث ، وبهذا يؤكد سان سيمون الترابط الطبيعى بين الدين والعلم ، ويؤكد أنه فى كافة العصور كان العلم دائما ذا مظهر دينى ، لأن كافة الاكتشافات لم تظهر إلا داخل جدران المعابد .

وفى هذا البحث أيضا يؤكد سان سيمون أن كافة مظاهر التفكير الإنسانى التى سبقت العصر الذى بدأ فيه هذا التفكير يعتمد على الملاحظة والنقد ، يجب

---

(١) المنظم ، الملزمة الثانية (١٨٢٠) فى مؤلفات سان سيمون وأنفنتان الجزء ٢٠ ص : ١٥٣

(٢) مشروع موسوعة علمية لكلود هنرى سان سيمون (١٨٢٠) — مجلة الاشتراكية عدد أبريل سنة ١٨٩٩ .

أن تعتبر كأعمال تمهيدية . فإن العلم لا يمكن اعتباره علماً وضعيا إلا فى العصر الذى تصبح فيه العلوم خاضعة للملاحظة . وينسب سان سيمون دورا خطيرا إلى سقراط وإلى الازدهار العلمى الذى يرجع الفضل فيه إلى الدور الذى قام به ديكارت وكندرسيه فى تمهيد الطريق أمام الفكر الإنسانى ليواصل سيره التقدمى .

وفى مشروع « الموسوعة العلمية الجديدة » يحاول سان سيمون أن يبرز أهمية أفكار كل من « بيكون » و « ديكارت » فى السيطرة على العلم الحديث . ففى كتاب « الأداة الجديدة للعلوم» Novum Organum Scientiarum الذى ظهر فى عام ١٦٢٠ ، يشير بيكون بضرورة تخليص العلم من الأفكار المتزلة ، وضرورة إخضاعه بكلياته وجزئياته للملاحظة العلمية « وأنه من الواجب فى كلمة واحدة قلب النظرية اللاهوتية رأسا على عقب لإقامة مذهب وضعى[1] » .

وبعد ظهور « نوفام أورجانم » بقليل ظهر منهج ديكارت المعروف « بالدوامات » Les Tourbillons . ذلك المنهج الذى يقول عنه سان سيمون أنه رائع لسببين أولهما أنه لم يتخلل تكوينه أية فكرة متزلة ، وثانيهما أن مؤلفه قد حدد وجهة النظر التى يجب أن يتخذها المنظم العبقرى الذى يباشر خطة البنيان العلمى العام بصورة ثابتة . ولكن هذا المنهج يعتبر معيبا بسبب أنه « ينقصه الهدف الذى حدده بيكون ، وهو تشييد العلم فى مجموعه وفى جزئياته على الملاحظة[2] » . ويستطرد سان سيمون قائلا : إنه يجب علينا أن لا نوجه اللوم إلى ديكارت ، وإنما يجب أن « يوجه اللوم إلى النظام العظيم للأشياء الذى جعل الأفراد والإنسانية نفسها لا تسيران إلا ببطء فى المجال العلمى[3] » .

وفى بحثه بعنوان « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » يقول إن الاكتشافات الهامة لم تكن أبدا وليدة الصدفة ، وإنما هى نتيجة لسلسلة من الأعمال التى هيأت

(١) و (٢) ، (٣) مشروع موسوعة علمية لكلود هنرى سان سيمون (١٨٢٠) – مجلة الاشتراكية عدد أبريل ١٨٩٩ .

الفكر الإنسانى لتصورها أو لإدراكها « فاكتشاف البوصلة الذى تم قبل القرن الخامس عشر بفترة طويلة من جانب ، والتقدم الذى حدث فى فن الملاحة أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر من جانب آخر ، هما اللذان زودا الأوربيين بوسائل كشف القارة الأمريكية ، ذلك الكشف الذى كانت لنتائجه أعمق الآثار الفلسفية على نظام الأفكار ، وذلك بتعريف الناس — بصورة مادية — أبعاد الكوكب الذى يقطنوه[١] » . كما أن كشف البناء الحقيقى للمجموعة الشمسية بمعرفة الكاهن البولندى « كوبرنيك » Copernic إنما يرجع إلى المشاهدات الفلكية التى تمت طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى جانب التقدم فى العلوم الرياضية . فهذا الكشف لم يكن وليد الصدفة وإنما يعتمد على التحول من الجانب اللاهوتى إلى الجانب الوضعى والاعتماد على الملاحظة فى تقرير الحقائق ، وبهذا « توقف بالإجماع — منذ قرن تقريبا — الاعتقاد فى عدم حركة الأرض ، وأقر العامة النظرية الفلكية الحديثة ، وأولوها قدرا من الثقة لم يمنحوه من قبل على الإطلاق للمعتقدات الدينية القديمة[٢] » .

ويُرجع سان سيمون هذه الثقة إلى تحول العامة عن المعتقدات اللاهوتية إلى الاعتقاد فى العلم والعلماء . وقد ساعدت هذه الثقة فى تمكين رجال العلم من الاستمرار فى بحوثهم واكتشافاتهم .

ويؤكد سان سيمون أن التقدم العلمى لن يؤدى إلى الظلم أو السيطرة وأن « الخوف من أن نرى فى يوم من الأيام قيام حكم استبدادى يعتمد على العلوم ، لهو أمر خيالى سخيف بقدر ما هو غير معقول ولا يمكن أن ينشأ إلا فى أذهان غريبة تماما عن كل فكرة وضعية[٣] » .

---

(١) آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤) ص : ٥٤ .

(٢) المنظم ، الملزمة الثانية (١٨٢٠) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢٠ ص : ١٥٤ .

(٣) نفس المرجع السابق . ص : ١٥٨ .

٣

السياسة والمجتمع

يرى سان سيمون أن المجتمع البائد كان يقوم على طبقات ثلاث : طبقة النبلاء ، والطبقة البورجوازية أو الطبقة الوسطى ، وطبقة الشعب أو الطبقة الأكثر عدداً ، وهى التى تنادى بالمساواة لأنها تعيش فى ظروف غير عادلة . ويرجع سوء التنظيم الاجتماعى — فى نظر سان سيمون — إلى أن العلاقة القائمة بين هذه الطبقات أساسها السيطرة . لأن الشعب يخضع للحكام الذين منحهم المجتمع هذه الميزة .

ويرى سان سيمون فى النظام النيابى السبيل إلى الاستقرار والسلام الدائم ، فى مؤلفه الذى عنوانه « فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » (١٨١٤) والذى عنوانه الإضافى : « فى ضرورة تجميع شعوب أوربا فى وحدة سياسية واحدة مع المحافظة على الاستقلال القومى لكل منها ووسائل ذلك » ، يقول سان سيمون أن فرنسا وإنجلترا يعتبران أكثر الدول تقدماً من الناحية الاجتماعية والسياسية ، لأنهما تعيشان فى ظل نظام نيابى ، وعلى ذلك فمن واجبهما أن توجها باقى الدول الأوروبية فى نفس الاتجاه . فيحل النظام النيابى محل النظام الطبقى الإقطاعى .

وفى الوقت الذى كان فيه مؤتمر فينا منعقداً لتقرير مصير دول أوربا التى غيرت من وضعها الحروب ، كان سان سيمون يقترح برلماناً أوربياً على النظام الإنجلوفرنسى بقيادة إنجليزية ، لأن الإنجليز لهم خبرة قديمة فى الحياة النيابية ، وأن خبرة فرنسا ترجع فقط إلى ميثاق يونية عام ١٨١٤ .

ويقترح أيضاً تأليف هذا البرلمان الأوربى من التجار والعلماء والمشرعين ورجال الإدارة على أن تكون الغالبية فيه للملاك ، ويمكن أن يتضمن عدداً

من غير الملاك إذا كانوا أهلا لهذه العضوية[١] .

وفى هذا المؤلف يرى سان سيمون أن السياسة باعتبارها محور العلوم الإنسانية . يجب أن تقوم على الملاحظة العلمية ؛ فكافة العلوم ليست سوى مسائل تستلزم الحل والفحص ، ولا يختلف أى علم منها عن الآخر إلا باختلاف طبيعة هذه المسائل نفسها . ولهذا فإن الطريقة التى تستخدمها بالنسبة لبعضها يجب أن تلائمها جميعاً .

ويعيب سان سيمون على السياسة أنها لم تتبع منهج العلوم ، فتعتمد على الملاحظة فى تقرير حقائقها ، مما أدى إلى عدم صلاحية أحكامها للتعميم . ويرى سان سيمون أنه قد آن الأوان لكى تنمو السياسة كعلم وتخرج عن الطوق المفروض عليها ، لأن صالح المجتمع نفسه يستلزم ذلك ، إذ أن غموض المبادئ السياسية وتناقضها كان فى كثير من الأحيان سبباً فى الاضطرابات الاجتماعية .

ويأخذ مثالا لذلك ، المجتمع الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، فيقول إنه مجتمع فاسد ما دام أن الأثرياء يزيدون فى ثرواتهم على حساب الفقراء ، وما دام الجهل والكسل والانغماس فى الملذات تهيمن على الساسة ورجال الحكم فى المجتمع ، وما دام الأشخاص الأكفاء العاملون لا يستخدمون إلا كعناصر مساعدة ودون أن يكون لديهم القدرة على الاستقلال فى تصرفاتهم ، وما دام غير القادرين هم الذين يكلفون برعاية القادرين من المواطنين ، وما دام المنحلون خلقياً هم الذين يدعون لتنشئة الفضائل فى المواطنين ، وما دام كبار المجرمين هم الذين يحاكمون أخطاء صغار الجانحين[٢] .

والمجتمع الجديد — فى نظر سان سيمون — لابد أن يستخدم التعاون بدلا من السيطرة ، بحيث تقوم العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس التكاتف

---

(١) فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى . مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، المجلد ١٥ ، ص : ١٩٦ .

(٢) تعاليم الصناع ، مؤلفات مختارة ، الجزء ٣ ص : ٦٧ و ٦٨ .

والتعاون بدلا من وجود تابع ومتبوع . ولن يتكون المجتمع إلا من فئتين من المواطنين : هؤلاء الذين يعملون من جانب ، وفئة المتبطلين التى يجب أن تتلاشى بالتدريج من جانب آخر ، لأن هناك قوة حقيقية فى طريقها إلى الظهور هى قوة الصناعة[١] .

ويبدى سان سيمون أسفه ، إذ يلاحظ أن المشرعين والميتافيزيقيين ، هم الذين يديرون دفة الأمور العامة ويشغلون أهم وظائف الحكومة ، وأن رأيهم هو المفضل فى مجلس النواب .

ولا يتردد سان سيمون فى مهاجمة المشرعين ، ولا يخفى كراهيته لهم ، وينعتهم بصفة البورجوازية ، بالمعنى القديم لهذه الكلمة التى كانت تطلق على أولئك الذين لا ينتمون إلى النبلاء ، ولكنهم يعيشون دون عمل شأنهم شأن النبلاء[٢] .

ولهذا فهو يرى تحرير الأداة الحكومية منهم ، وإلا فإن الثورة الفرنسية تكون قد فشلت فى أداء رسالتها ، ولن تستقر الأمور فى المجتمع بأى حال من الأحوال[٣] . ويطالب برفع مستوى معيشة عمال الزراعة وعمال الصناعة على السواء ، والتخلى عن الأساليب المنافية للإنسانية فى استغلالهم لصالح أصحاب رؤوس الأموال . وعلى الحكومات أن ينصرف اهتمامها إلى تحسين حال هذه الطبقة التى لا تلقى أى عناية ، وأن ينظر إليها كعنصر أساسى فى تقدم الإنسانية وازدهارها .

ولن يتسنى للحكومة ذلك إلا إذا قامت بتسريح الجيوش المرتزقة ، فلن يستقر السلام إلا إذا سرحت هذه الجنود . ويرد على المعترضين بأن تسريح

---

(١) المنظم (١٨١٩ – ١٨٢٠) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ٢٠ ص : ١٧ – ٢٦ .

(٢) و (٣) فى النظام الصناعى : مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ٢١ ص : ٣٥ – ٣٦ .

الجيش النظامى سيجعل البلاد عرضة للغزو قائلا : « ما من مرة تعرضت فيها فرنسا للغزو ، إلا وكانت جيوش المواطنين أنفسهم ، جيوش المدنيين الذين لم يحملوا السلاح من قبل ، هى وحدها التى تحمل عبء الدفاع عن الوطن[١] ». فأمنية سان سيمون هى أن يرى المجتمع وقد ألقى سلاحه ، وامتنع عن التسلح ، واتجه نحو السلام المقيم .

ولهذا فهو يهاجم الاستعمار — شأنه فى ذلك شأن فلاسفة القرن الثامن عشر — وإن كان يوافق على بقاء مستعمرات الهجرة والإسكان ، ويرجع ذلك إلى اعتقاده بأن هذه المستعمرات سوف تتحرر يوماً ما شأنها فى ذلك شأن الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى مؤلفه بعنوان « تعاليم رجال الصناعة » (١٨٢٣) يعمل سان سيمون على إدخال فكرة الحكومة الميسرة ، أو الحكومة التى تخفف من أعباء الأفراد Gouvernement à bon marché فى ذهن الرأى العام . يرى سان سيمون أن الاتجاه السياسى العام للغالبية العظمى فى المجتمع هو أن تحكم بأيسر الوسائل الممكنة ، وأن لا تشعر بسيطرة هذا الحكم ، وأن يكون حكمها بواسطة أشخاص قادرين على تأكيد الاستقرار العام .

ويرى سان سيمون أن الاستقرار العام مهدد بشكل لم يسبق له مثيل ، ذلك لأن الحكومة فى واد والشعب فى واد آخر ، فالشعب يريد حكومة لا تحمله إلا أقل قدر ممكن من الأعباء . ولهذا سوف يظل السلام والأمن العام مهددين ما دامت الأعباء ستسير دائماً فى اتجاه الزيادة[٢].

ومن أهم المسائل التى يعنى سان سيمون إلى إيجاد حل لها هى مسألة التعارض بين الحكام والمحكومين ، ويذهب إلى القول بأن « الشعب الفرنسى ، لم يعد به

---

(١) السياسى (١٨١٩) ، المجلدة الثانية ص ١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص : ٧٢ .

حاجة لأن يحكم ، أو بمعنى آخر لأن يؤمر [١] » وأن الإنتاج وتثقيف المواطنين وتنظيم الأمور هى الوسائل الفعالة لتحقيق سعادة الإنسانية . وأن الطريق الذى يجب أن تتبعه الحكومة بعد أن رسمته الأمة جيداً ، هو إلغاء السلطات التعسفية ، وإلغاء الامتيازات التى لا تقوم على الكفاءة والمميزات الشخصية ودعوة الأشخاص الذين يظهرون كفاية ظاهرة فى العلوم الوضعية ، وفى الفنون الجميلة ، وفى الصناعة لتولى إدارة الشئون العامة . وهذا أمر جوهرى لأنه يتيح للعباقرة أن يصلوا إلى الصف الأول مهما كانت طبقتهم أو مركزهم الاجتماعى الذى أوجدهم فيه حظهم أو مولدهم ، وبعبارة واحدة : « فإن الوسيلة التنظيمية المقترحة ، سوف تحقق لفرنسا ، أكثر الميزات السياسية وهى أن تحكم بأقل قدر ممكن من الأعباء وبأيسر الوسائل الممكنة[٢] ».

فأفضل النظم الاجتماعية فى نظر سان سيمون هى التى تتيح للأفراد — الذين يكونون الغالبية فى المجتمع — ظروفاً أسعد ما يمكن ، والتى تتيح لهم أنسب الوسائل والتسهيلات التى تمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية . ولن يتحقق ذلك إلا عندما يتاح للأفراد الذين يتصفون بمزايا خاصة وقدرات ممتازة أن يحتلوا الصف الأول فى المجتمع ، دون اعتبار إلى الحسب أو النسب أو العنصر أو الدين .

ولهذا فإن سان سيمون يرى أن كبار رجال الصناعة وحدهم ، هم الذين يستطيعون أن يحققوا رغبات الرأى العام ، لأن نجاحهم فى مشروعاتهم الخاصة هو أكبر دليل على كفايتهم فى التنظيم والإدارة . ولهذا يجدر بنا تكليفهم بإدارة الثروة العامة ، لأنهم أكثر الناس حرصاً على الاستقرار والسلام ، ولأنهم أشد المواطنين اهتماماً بالاقتصاد فى النفقات العامة وفى تضييق نطاق الظلم الاجتماعى فى كافة صوره .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن رفاهية المواطنين لا يمكن أن تتحقق

---

(١) مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ٢٠ ص ١٤٤ .

(٢) مؤلفات مختارة (الجزء الثانى) ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .

إلا عن طريق تقدم العلوم والفنون الجميلة وأنواع الحرف والمهن المختلفة . وعلى هذا فإننا إذا نظرنا إلى الدور الذى يؤديه كل من الأمراء ، ورجال البلاط ، والكهنة ، والملاك الذين لا يعملون ، نجد أن كل هؤلاء لا يساهمون بدور مباشر فى تقدم العلوم والفنون والصناعات ، بل إنهم يعوقون بالضرورة رفاهية الشعب ، وذلك بمنعهم العلماء والفنانين من أن يصلوا إلى أسمى درجات الاعتبار فى المجتمع [١] . وهذا يؤكد لنا « أن المجتمع القائم هو فى الحقيقة مجتمع مقلوب الأوضاع ، ما دام أن الشعب كان قد قبل كمبدأ أساسى أن الفقراء يجب أن يكونوا كرماء نحو الأغنياء ، وبالتبعية أن أقل الناس يسراً يحرمون أنفسهم يومياً من جزء من ضرورياتهم لكى يزيدوا فى كماليات كبار الملاك »[٢].

ويؤكد سان سيمون أن كل مجتمع سوف يصبح بالضرورة مصنعاً كبيراً أو خلية واسعة للإنتاج ، وحكومة هذا المجتمع يجب أن يتولاها رجال أكفاء هم رجال الصناعة ، بمعنى أن حكومة تقوم على أساس اقتصادى يجب أن تحل محل الحكومات السياسية[٣] فالسياسة فى نظر سان سيمون هى « علم الإنتاج » ، والصناعة بالنسبة إليه هى حجر الزاوية فى سعادة الإنسانية[٤] .

ومن رأى سان سيمون أن السياسة كما أنها علم الإنتاج ، فهى نتيجة للأخلاق . ففى جميع الأزمنة ولدى جميع الشعوب ، نجد اتصالا مستمراً بين النظم الاجتماعية والأفكار الأخلاقية مما يدفع إلى الاعتقاد بوجود علاقة سببية بين الأخلاق والسياسة . فالأخلاق عبارة عن معرفة القواعد التى يجب أن تسود العلاقة بين الأفراد والمجتمع حتى يكون كلاهما سعيداً بقدر الإمكان . ولهذا فإن السياسة ليست سوى العلم الذى يعالج هذه القواعد بطريقة تجعلها مفيدة وميسورة فى تنظيمها ، وبمعنى آخر فإن السياسة مشتقة من الأخلاق

(٢،١) المنظم (١٨١٩) مؤلفات سان سيمون وأنفانتان : الجزء ٢٠ ص : ١٧ – ٢٦ .
(٣) تعاليم رجال الصناعة ، مؤلفات مختارة ، الجزء ٣ ص ٦٨ .
(٤) مقدمة الأعمال العلمية فى القرن ١٩ – مؤلفات مختارة ، الجزء الأول – ص : ٢٢٠ .

كما أن النظم والسنن الاجتماعية ليست سوى نتيجة لآراء وأفكار المجتمع نفسه »[١]

وعلى هذا فمن واجب الحكام أن يعملوا لسعادة المحكومين ، ويتحقق ذلك إذا أدرك الحاكم أنه لم يوجد لينهى ويأمر ، ولكن لكى يكون مندوباً عن المحكومين ، مكلفاً بأعمالهم فى المجتمع الذى يعيش فيه[٢] .

ويهدف سان سيمون فى الكثير من كتاباته ، وعلى الأخص فى بحثه بعنوان « آراء فى الإجراءات الواجب اتخاذها ضد تكتل عام ١٨١٥ » إلى البحث عن الوسائل التى تساعد على إقرار السلام فى العالم بصفة عامة ، وفى المجتمع الأوربى بصفة خاصة .

فهل كان سان سيمون خيالياً فى تفكيره هذا ؟ الحق إنه لم يكن خيالياً لا فى تفكيره ولا فى أساليبه لتنظيم السلام ، لأن وجود سلام دائم فى أوربا كان أمنية كل شعوبها فى عام ١٨١٤ . ولهذا لاقى كتابه عن إعادة تنظيم المجتمع الأوربى رواجا كبيراً بين قرائه العديدين ، واكتسب أنصاراً بين فريق كبير من الأحرار .

وبالرغم من النقد الذى وجه إلى سان سيمون فى ذلك الوقت ، وعلى الأخص من جانب « بازان »Bazin الذى اتهم سان سيمون بأنه يتكلف الوطنية وهى بريئة منه ، فإنه وجد من فريق آخر ، فى مقدمته عدد كبير من المحامين أمثال شارل كونت Charles Comte ودينويه Dunoyer ، تأييدا وتشجيعاً لدرجة أنهم وضعوا صفحات مجلتهم « الرقيب » Le Censeur تحت تصرفه ، وهى مجلة ذات اتجاه تحررى .

وفى عددى يناير وفبراير عام ١٨١٥ من هذه المجلة ظهرت مقالات لسان سيمون أثارت ضجة كبيرة واهتماماً متزايداً لمتابعتها . فى المقالة الأولى ينادى سان سيمون بضرورة قيام الطبقة البورجوازية بإنشاء حزب للمعارضة ، ويظهر فى هذه المقالة — لأول مرة فى التاريخ الحديث — تعريف واضح دقيق للحزب

---

(١) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص ٣٠

(٢) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص ٣٥ — ٣٦ .

السياسى ، إذ يقول إن « الحزب » — يتكون فى اللحظة التى يستقر فيها افراده ، الذين تجمعهم الأهداف المشتركة ، على اختيار زعيم معين ، ينهض بنشاطه ، ويدير شئونه بصورة تحقق الوحدة فى العمل ، وتؤلف بين وجهات النظر فى وقت واحد ، مما يعين بالضرورة على ظهور الحزب فى أقوى مظهر له [١] .

ويستشف من المقالة الثانية بمجلة الرقيب ، أن سان سيمون يتبين أن المثالية لا تكفى لإنشاء حزب سياسى ، ولكنه يجب على الحزب — بالإضافة إليها — أن يتخذ الوسائل التى تمكنه من تحقيق أهدافه بصورة لا تتنافى مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية المتعارف عليها .

ويلاحظ أن نظرة سان سيمون إلى تكوين الحزب السياسى ينتابها التغير . ففى عام ١٨١٩ ، عندما كان منتمياً إلى حزب الأحرار Le parti libéral كان يطالب بأن تفتح الأحزاب السياسية أبوابها لجميع المواطنين الذين يؤمنون بالآراء التحررية مهما اختلفت طبقاتهم . ولهذا فهو يرى أن يتكون الحزب من المواطنين الذين ينفذون الأعمال بطريقة مفيدة فائدة مباشرة للمجتمع ، ومن هؤلاء الذين يديرون هذه الأعمال أو الذين يساهمون برؤوس أموالهم فى المشروعات الصناعية ، ومن هؤلاء الذين يساهمون فى الإنتاج عن طريق أعمال مفيدة يقومون بها من أجل المنتجين [٢] .

وعلى هذا فإنه ينضوى تحت لواء الحزب القومى كل من يعمل فى سبيل الإنتاج . ولا يمكن أن يسمح للأفراد الذين يستهلكون دون أن ينتجوا شيئاً ، والأفراد الذين لا تؤدى أعمالهم أى فائدة تذكر للمجتمع ولا تخدم المنتجين بحال من الأحوال ، كما أنه لا يحق لكل من يعتنق مبادئ سياسية يؤدى تطبيقها إلى إضرار بالإنتاج أو تتجه هذه المبادئ إلى حرمان رجال الصناعة من حقهم فى أن يكون لهم أسمى درجات الاعتبار الاجتماعى ، لا يسمح ولا يحق لكل هؤلاء

---

(١) مجلة الرقيب ، عدد يناير ١٨١٥ « راجع جان دتزى — سان سيمون ص ٢٧ . »

(٢) الرجل السياسى ، الملزمة العاشرة ص : ٣٥٣ .

أن يكونوا أعضاء فى الحزب القومى ، بل إنهم فى الحقيقة بوضعهم هذا يكونون حزباً لا قومياً Anti-national [١] .

وينبهنا سان سيمون إلى أنه منذ أصبح المواطنون سواء أمام القانون ، عند إعلان حقوق الإنسان فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ ، لم يعد انتماء الفرد إلى الحزب القومى أو الحزب المضاد له أمراً يجئ وفقاً للمصادفات أو ظروف المولد أو غيرها ، ولكن طبيعة العمل الذى يزاوله الفرد والآراء التى يعتنقها هى التى تحدد إلى أى الحزبين ينتمى الفرد بالضرورة .

ولهذا فإن « السيد دى لافاييت » M. de Lafayette وهو مزارع يدير بنفسه مزارعه الشاسعة ، والسيد « دى لاروشفوكو — ليانكور » M. de la Rochefoucauld Laincourt وهو صاحب مصانع لغزل القطن ، ينتميان بالضرورة ، نتيجة لطبيعة العمل الذى يمارسانه ، وبسبب آرائهما التحررية ، إلى الطبقة الصانعة . بينما أن السادة « بارتلمى » Barthélemy و « بلار » Bellart و « باستوريه » Pastoret الذين نشأوا من أبناء الطبقة الدنيا ، يعتبرون ضمن الحزب اللاقومى لأنهم رغبوا فى ذلك وأرادوه [٢] . »

ثم يتحول سان سيمون عن المطالبة بقيام حزب قومى ، إلى مطالبة كبار رجال الصناعة بإنشاء حزب يضم الطبقة الصانعة وحدها . ففى تعاليم الصناع التى نشرت فى مارس ١٨٢٤ يقول سان سيمون : « إننا نوجه أنظاركم ، أيها السادة ، إلى أن إنتاج أعمالكم سوف يكون غنيمة تتنازع عليها وتلتهمها كافة الأحزاب السياسية التى سوف تقوم ، إذا لم تكونوا حزباً سياسياً يقوم بالدفاع عنها ضد جشع المستهلكين غير المنتجين . وسوف تتبينون بعد ذلك أن إصدار نشرة تعلن المبادئ والآراء الخاصة بحزب صناعى هو بالنسبة لكم الوسيلة الوحيدة الممكنة لإنشاء حزب سياسى متماسك [٣] . »

---

(١) الرجل السياسى ، الملزمة العاشرة ص ٣٥٣ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣٥٤ .

(٣) تعاليم الصناع ، ز سؤلفات مختارة ، الجزء الثالث ص ١٧٤ .

٤

الصناعة
والطبقة الصانعة

للصناعة وللطبقة الصانعة فى كتابات سان سيمون ومؤلفاته مكانة مرموقة فهو يوليها أكبر قدر من العناية ، ويذهب إلى حد القول بأن الصناعة هى الوسيلة إلى الحرية ، وأنه لا يمكن للحرية أن تتأكد فى مجتمع من المجتمعات دون قيام الصناعة فى هذا المجتمع ، بل إن هذه الحرية لا يمكن أن تنمو وتنضج ويشتد عودها ، إلا إذا اعتمدت على الصناعة[1] .

والصناعة ، فى نظر سان سيمون ومدرسته ، ليست غاية فى ذاتها ، وإنما هى وسيلة إلى غاية أسمى ، وهى الوصول بالمجتمع إلى حالة من الاستقرار السياسى والاجتماعى ، الذى تتلاشى مع وجوده شيئاً فشيئاً جميع مظاهر السلطة ، وتتحول إلى مجرد أعمال الصيانة وحفظ النظام العادية ، بل إن التنظيم القضائى نفسه يصبح غير ذى موضوع فى مجتمع صناعى متكامل .

ويهمنا أن نقف على تحديد دقيق لمدلول « الصناعة » و « الصانع » فى مذهب سان سيمون الاجتماعى . ففى مستهل كتاباته ، نجد أنه يعطى للصانع مدلولا عاماً فيعنى به كل من يعمل فى سبيل التقدم ، وعلى هذا الأساس فإنه يعتبر أن رجال الصحافة التقدميين ، والعلماء التقدميين صناع ، لأنهم يعملون فى سبيل التقدم . ثم يتحول سان سيمون فى كتاباته الأخيرة عن فكرة التقدم إلى فكرة الإنتاج . ويصبح الصانع ، فى نظره ، هو كل من يعمل فى سبيل الإنتاج ، أو لكى يضع فى متناول مختلف أفراد المجتمع وسيلة أو أكثر من

---

(١) الصناعة : فى مؤلفات سان سيمون وأنصاره ، الجزء ١٩ ص : ٣٠ .

الوسائل المادية التى تشبع حاجاتهم أو ذوقهم الخاص ، ولهذا فإن الزارع الذى يبذر الحب ويربى الطيور والماشية يعد صانعاً ، والنجار والحداد وصانع الأقفال ، كل منهم صانع فى مهنته ، وبالمثل صانع الاحذية وصانع القبعات والقمصان كل منهم صانع كذلك ، والتاجر والبحار الذى يعمل فوق البواخر التجارية صانع بالمثل . وكل هؤلاء ، يعملون على الإنتاج وعلى تيسير الوسائل المادية اللازمة لإشباع حاجات المواطنين وأذواقهم[١] .

فالصناعة فى نظر سان سيمون تعنى العمل فى كافة صوره : العمل اليدوى والعمل العقلى ، العمل الإدارى والعمل التنفيذى ، العمل التجارى والعمل الصناعى والعمل الزراعى سواء بسواء ، أما عدم الإنتاج فهو الملكية بدون عمل . فالأرستقراطيون أو البورجوازيون الذين يعيشون على ريع عقاراتهم ، وأصحاب رؤوس الأموال الذين يعيشون من امتصاص دماء الأجراء ، يعتبرون فى رأى سان سيمون ، غير منتجين . فى حين أن مالك الأرض أو العقار الذى يقوم بإدارته بنفسه يعد صانعاً ، وصاحب رأس المال مهما بلغت ثروته إذا قام بإدارة رأس ماله بنفسه يعتبر صانعاً مثله فى ذلك مثل المؤلف الصغير الذى يؤلف كتاباً فى الصناعة ويعد فى نفس الوقت صانعاً .

ويرى سان سيمون أن طبقة الصناع يجب أن تحتل الصف الأول ، لأنها أكثر الطبقات أهمية ، ولأنها تعتمد على قواها الذاتية وأعمالها الخاصة فى تدعيم كيانها . بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الطبقات الأخرى يجب أن تعمل لصالح الطبقة الصانعة ، لأن هذه الطبقات جميعها وليدة الطبقة الصانعة . وفى عبارة واحدة يقول سان سيمون : « ما دام كل شىء يعمل بواسطة الصناعة ، فإن كل شىء يجب أن يكون من أجلها[٢] » ومع ذلك فإن الطبقة الصانعة لم تصل بعد إلى مكانتها الحقيقية فى المجتمع .

---

(١) تعاليم الصناع ، فى مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث ص : ٦٧ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٦٨ .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن الملاك العقاريين الذين لا يعملون بأنفسهم فى سبيل الإنتاج ، يستفيدون دون أن يعرضوا أموالهم للمخاطرة . وعلى هذا فمن الضرورى إعادة تنسيق العلاقة بين المالك والمزارع بصورة مماثلة للعلاقة القائمة بين أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يعملون وبين الصناع والتجار .

وعمال الصناعة فى جميع أرجاء العالم أخوة ، لأنهم يعيشون فى ظروف متماثلة ، يواجهون معاً نفس العقبات ، ويشعرون معاً بنفس الحقوق وبنفس الواجبات . فالصناعة وحدة واحدة ، يربط بين أفرادها المصالح المشتركة للمواطنين ، وحاجتهم جميعاً إلى الحرية والأمان [١] . وعلى هذا فإن المنتجين من جميع الطبقات ، وفى كافة البلدان ، هم أصدقاء بالضرورة . ولا شىء يمكن أن يحول دون توحيدهم .

ثم يذهب سان سيمون إلى القول بأنه « إذا كان لجميع الصناع المصالح نفسها فإنه ليس لديهم جميعاً نفس الوسائل ، فكل نوع من الصناعة يزود الذين يمارسونه بقوى خاصة . وبالمثل ، فإن صناع كل بلد يوجدون فى أوضاع تتفاوت درجة ملاءمتها لمصالح الصناعة ، تبعاً للحكومة التى يعيشون فى ظلها . إن للصناعة فى كل مكان سيراً واحداً ، ولكن تبعاً للظروف التى وجدت فيها على اختلاف البلدان ، فقد اتصفت بطابع سياسى خاص . وأصبح لها هذا التأثير أو ذاك فى إدارة الشئون العامة[٢] » . ويضيف سان سيمون إلى ذلك أن هذه الاختلافات فى الحالة السياسية للصناعة لدى الشعوب المختلفة ، لم تكن سبباً يعوق وحدة الصناعات القومية وإنما كانت — على العكس — حافزاً لتحالفها وتعاونها « لأن هذه القوى السياسية المتنوعة للصناعة ، دون أن تتعارض بالضرورة ، يمكنها — على العكس — أن تتوافق بطريقة مثمرة للوصول إلى هدف المنفعة المشتركة [٣] . »

---

(١) الصناعة : فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ١٩ ص : ٤٧ .

(٢، ٣) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص : ٤٨ .

ويؤكد سان سيمون أن تحسين ظروف الطبقة الكادحة يتحقق فى إلغاء الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات غير المنتجة ، وفى تنمية الإنتاج المادى والتربية الاجتماعية . فهو يرى أن التربية بالنسبة للطبقة الكادحة ، أكثر أهمية للغاية من التعليم ، وأن هذه التربية تتحقق عن طريق ما أسماه « بالتعليم المتبادل » L'enseignement mutuel [1] .

ويلقى سان سيمون على عاتق العلماء والفنانين ورجال الفكر عبء إثارة الرأى العام ، وحفز الطبقة الكادحة على الإحساس بأهميتها وبواجبها الاجتماعى فعن طريق الفنون الجميلة من شعر ورسم وموسيقى وغير ذلك يمكن أن يشعر المواطنون بمزايا الحضارة ، ويمكنهم أن يساهموا فى مباهج الحياة التى كانت فيما مضى وقفاً على الطبقة الأرستقراطية وحدها .

فالعلماء والمفكرون الذين تقوم أعمالهم على الملاحظة والاستدلال ، يمكنهم أن يقدموا للطبقة الكادحة لوحة مزدهرة بنواحى التقدم الذى سوف تتجه إليه الإنسانية ، ويمكنهم أن يبينوا إمكانيات زيادة المباهج الحاضرة لصالح جميع طبقات المجتمع وعلى الأخص لصالح أكثر الطبقات عدداً وهى الطبقة الكادحة. فعلى عاتق هؤلاء الرجال من العلماء والفنانين يقع عبء إرساء أسس التعليم العام والقواعد الصحية للهيئة الاجتماعية فى جوانبها المادية والأخلاقية [1].

---

(١) آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤) ص : ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص : ١٢٣ و ١٢٥ .

٥

الدين والأخلاق

نجد الجذور الأولى لأفكار سان سيمون الدينية والأخلاقية فى « رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه » (١٨٠٣) ، فى هذه الرسائل يسعى سان سيمون سعياً أكيداً إلى البحث عن وسيلة للنهوض بالإنسانية إلى أسمى درجات الكمال ، وإلى تنظيم البحث العلمى تنظيماً يجعله فى متناول الناس جميعاً . ويخلص سان سيمون من هذا البحث إلى اقتراح تكوين جمعية من واحد وعشرين عضواً تنتخبهم الإنسانية . وتتخذ هذه الجمعية اسم « مجلس نيوتن » لتمثيل الإرادة الإلهية فى هذا الكون . ولنتابع سان سيمون فى إحدى تأملاته حيث يتصور أن الله يحدثه ويوحى إليه بقيام ديانة جديدة هى « ديانة نيوتن » فيقول له :

« إن مجلس نيوتن سوف يمثلنى على الأرض ، فيقسم الإنسانية إلى أربعة أقسام يطلق عليها : إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية . وسوف يكون لكل قسم من هذه الأقسام مجلساً يتكون على غرار المجلس الرئيسى ، وسوف يرتبط كل فرد فى العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الأقسام وبالمجلس الرئيسى وبمجلس القسم الذى يتبعه . وينتخب النساء فى هذه المجالس على قدم المساواة مع الرجال [1] » .

وأهم ما يسترعى انتباهنا فى هذه الرسائل هو أن سان سيمون يبعد عن نفسه شبهة اختراع ديانة جديدة ، ويضفى على نفسه صفة الرسل ، كما أنه أراد أن يورد على لسان الله فكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، تلك الفكرة التى كان ينادى بها ، حتى يسكت معارضيه فى منح المرأة حقوقها الكاملة أسوة بالرجل .

---

(١) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ١٥ ص : ٥٨ .

ويحاول سان سيمون أن يقدم نظرية تاريخية للأديان ، يعتقد بمقتضاها أن الأديان كانت مظهراً شعبياً للعلوم فيما مضى . ولهذا وجب أن تنقرض الأديان طالما كان العلم الذى تقوم على أساسه علماً متأخراً فى مستواه عن علوم العصر الحديث . ويرى سان سيمون أن الدين الذى يتفق مع الإنسانية فى تقدمها يجب أن يكون دين العلم أو « دين نيوتن » حيث يحل فيه العلماء محل الرهبان والكهنة .

ويرى سان سيمون أن عصر الآراء الوضعية قد بدأ ، ولا يمكن أن نعطى للأخلاق مقومات أكثر مما تحتاجه حياتنا الاجتماعية العملية . فروح القرن الذى نعيش فيه ، ومن باب أولى القرون التى ستتعاقب بعد ذلك ، تستلزم إنشاء أخلاق أرضية وضعية تتلاءم مع التطور العلمى والفكرى المعاصر[1] .

ولكى نبدأ فى بناء هذه الأخلاق الوضعية لابد أولا من إتمام إصلاح المجتمع ، حتى يمكن قيام أخلاق عامة ذات التزامات موحدة للحاكم والمحكوم على السواء ، فمن المعروف أن الحكام يجب أن يعملوا لسعادة المحكومين ، ولكن هذه القاعدة لا تتبع إلا نادراً ، لأن الحكام لا يتحلون بالصفات الأخلاقية . وكل ما نراه هو أن الحاكم يجب أن يأمر والمحكوم يجب أن يطيع ، هذه هى الصورة الأخلاقية التى تربط بينهما . « ولهذا لا يمكن علاج هذا النقص الأخلاقى إلا إذا أدرك الحاكم أنه لم يوجد لينهى ويأمر ، ولكن لكى يكون مندوباً عن المحكومين ، مكلفاً بأعمالهم فى المجتمع الذى يعيش فيه[2] » . فإذا أردنا أن نقيم حياة أخلاقية سوية وجب أن يتولى رجال الصناعة مقاليد الحكم ، فهم وحدهم الذين يتحلون بالصفات الأخلاقية لأنهم يعملون ويهدفون إلى المنفعة الاجتماعية .

ويتساءل سان سيمون كيف نستطيع أن نميز بين ما هو أخلاقى وبين ما يتنافى مع مبادئ الأخلاق ، ويقول لنأخذ أساساً لذلك مبدأ السيد المسيح : « أحب قريبك مثل ما تحب نفسك ، واعمل للآخرين ما تريد أن يعمله

---

(١) الصناعة ، المجلد الثانى ، الجزء ١٩ ص : ٣٠ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٣٥ ، ٣٦ .

الآخرون لك » . يقول سان سيمون إن الحياة الصناعية طبقاً لمبدأ الأخلاق المسيحية حياة أخلاقية ، إذ أن كل من يعمل فى الصناعة يستخدم وقته لخدمة أقربائه ، فهم يكرسون وقتهم وإنتاجهم فى إشباع حاجات المواطنين ، وإدخال البهجة والسرور إلى نفوسهم . فى حين أن كل من لا يعمل فى الصناعة لا أخلاق له ، ما دام يستهلك فقط دون أن ينتج ، وما دام يعيش عالة على الآخرين ، وما دام يستمتع بكافة مزايا عمل الصناعيين دون أن يعطيهم بديلا عن ذلك شيئاً قد يفيدهم وما دام أنه لا يعمل لجيرانه مثل ما يعمله جيرانه له [١].

ومع ذلك فهو يدعو إلى قيام أخلاق جديدة ، أخلاق دنيوية ، أخلاق تقوم على العمل والتعامل بمنأى عن كل نزعة روحية أو سماوية . فهو وإن كان يعترف فى مؤلفه المعروف باسم « المنظم » بأن المسيحية فى حالة ازدهار أكثر مما يتوقعه رجالها ، إلا أنه يتساءل عن أهمية ذلك الازدهار ما دام أن الأخلاق المسيحية قاصرة عن أن تكون هى الأخلاق الدنيوية . ولهذا فهو يرى إنشاء علم للأخلاق يقوم على الملاحظة والتعقل وحدهما[٢] .

وفى مجلة « الصناعة » يؤكد سان سيمون أن المسيحية قد أسدت خدمات جليلة إلى الأخلاق ، ومن غير الإنصاف أن ننكر ذلك ، ولكن يجب أن نقر بنفس الروح التى دفعتنا إلى الاعتراف بذلك أن عهد هذه الأخلاق قد انتهى ، وأن الزمن الذى كانت صالحة له قد ولى[٣] . ويتناول بالنقد المبدأ الأساسى للأخلاق المسيحية وهو « لا تعمل للآخرين ما لا تحبه لنفسك » فيقول إن هذا مبدأ يقوم على السلبية ولا يحتوى أى نوع من الإلزام لأنه ينطوى على تحذير وليس قائماً على أمر إيجابى . كما أن هذا لا يلزم الفرد فى مواجهة

---

(١) الرجل السياسى (١٨١٩) الملزمة العاشرة ص : ٣٥٥ .

(٢) المنظم : الملزمة الثانية : ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) Introduction aux travaux scientifiques du XIXe Siècle (1807-1808) in Oeuvres Choisies, T. I. p. 249.

نفسه ولهذا فهو يتساءل عن قيمة هذا المبدأ الأخلاقى بالنسبة لإنسان يعيش فى عزلة عن الآخرين .

ويوصى لذلك بالاستعاضة عن مبدأ الأخلاق المسيحية بمبدأ آخر هو « يجب على الإنسان أن يعمل [١] » فأكثر الناس سعادة هم أولئك الذين تتحقق لهم فرص العمل ، والأسرة السعيدة هى التى يستغل جميع أفرادها أوقاتهم استغلالا مثمراً ، وأكثر الشعوب سعادة هى التى لا يكون بين أفرادها إلا قلة من الأفراد غير المنتجين . وفى الوقت الذى تنعدم فيه البطالة كلية تصبح الإنسانية فى أزهى مراحلها[٢] .

والدين — شأنه فى ذلك شأن كافة الظواهر الاجتماعية الأخرى — لابد أن يتفق مع طبيعة المجتمع وظروف الحياة فيه . وما دام أن المجتمع المعاصر يعيش فى ظل العلوم الوضعية ، فإن الدين يجب أن يكون بمنأى عن كل نزعة روحية أو سماوية ، وبعيد عن كل إرهاب أو شعور بالخطيئة ، ديانة تقوم على أخلاق دنيوية ، أخلاق فضيلتها العمل والتعامل فأكثر الناس سعادة — فى نظر سان سيمون — هم أولئك الذين تتحقق لهم فرص العمل ، وفى الوقت الذى تنعدم فيه البطالة كلية تصبح الإنسانية فى أزهى مراحلها . ويعطى سان سيمون لهؤلاء الذين يعملون فى ميدان العلم والمعرفة أسمى درجات الأخلاق الدنيوية ، ويعتبرهم أكثر المواطنين سعادة لأنهم يحققون بعملهم سعادة الإنسانية جمعاء .

ويذهب سان سيمون إلى حد أنه يربط التطور الأخلاقى بتطور العلوم ، فيقول إن الإنسان يرتقى ويتقدم ، ومن الطبيعى أن تكون الأخلاق مرنة ومتطورة بحيث تساير ارتقاء الإنسان وتقدمه ، وأن تتجه هذه الأخلاق وجهة تقدمية بالمثل وأن تتبع التطور العلمى للإنسانية خطوة خطوة .

فهذا الاتجاه التطورى للأخلاق الذى ينادى به سان سيمون ينبع فى

(٢،١) نفس المرجع السابق : ص : ٢٢١ .

الحقيقة من فكرته عن الأخلاق العلمية ، وأن الأخلاق شأنها فى ذلك شأن كافة العلوم المجردة تخضع للملاحظة والتجربة والقوانين الوضعية . ولهذا فإنه من الضرورى أن يحل محل الأخلاق السماوية أخلاق أرضية وضعية ، تقوم فضائلها — لا على الخوف والرهبة والاعتقاد فى سوء المصير — وإنما تعتمد على فضائل إنسانية تقوم على العمل والتعامل والإنتاج والثقة بالنفس والاعتزاز بقدرتها على السيطرة على نوازع النفس والتحكم فى الطبيعة .

والأخلاق الأرضية التى يرى سان سيمون أنها تتفق مع عصر العلوم الوضعية لا تضحى بالفرد مهما كانت الظروف ، وإنما يمكن أن تضحى بالجماعة . لدرجة أن سان سيمون يؤكد أن العقد الاجتماعى لم يقم على أساس حماية الحرية الفردية وإنما هدفه الأساسى هو تحقيق أقصى درجات السعادة للأفراد دون أن يعنى أن يكونوا أكثر تحرراً عن ذى قبل . فالعقد الاجتماعى يهدف إلى قيام جماعة متناسقة تحيط الأفراد بسياج من الطمأنينة والسلام فحسب .

ويذهب سان سيمون فى مؤلفه الذى اختتم به حياته الزمنية والفكرية والذى أسماه : « المسيحية الجديدة » إلى تأكيد أن جميع الصعاب التى تواجه قيام المجتمع الصناعى يكفى لزوالها أن يتمسك العلماء بالمسيحية التى لا تزال مبادئها الأخلاقية هى المبادئ الأخلاقية الوحيدة المعروفة لدى جماهير الشعب . يكفى أن يقوم العلماء بتنفيذ مبادئ الأخوة المسيحية فى صالح الطبقة العاملة ، وعندئذ سوف يتجه المجتمع من تلقاء نفسه نحو تحسين ظروف الطبقة الأكثر عدداً والأشد حرماناً[1] » .

ولكن سان سيمون يريد أن يتجه العلماء إلى المسيحية فى ثوبها الجديد ، والمسيحية التى ارتأى سان سيمون أنه لا غنى عنها لتنظيم المجتمع الاقتصادى مسيحية تتخذ صورة مبادئ لأخلاق اجتماعية ذات مظهر مسيحى .

---

(١) المسيحية الجديدة (١٨٢٥) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ٢٣ . ص : ١١٨

وفى « المسيحية الجديدة » نجد أن التنظيم الجديد للمسحية يشتق كافة مبادئه الزمنية والروحية من المبدأ القائل بأن الناس يجب أن تتعامل كإخوة ، ويتجه التنظيم الجديد نحو توفير وسائل الحياة السليمة للطبقة الأكثر حرمانا فى المجتمع[١] .

يرى سان سيمون أن الأساس الأخلاقى فى المسيحية الجديدة هو أهم ركن فيها ، وأن مظاهر الطقوس والعبادة لم يعد لها الاعتبار الأول فى نظر المسيحيين الجدد ، وإنما هى عبارة عن وسائل مساعدة تهدف إلى تثبيت انتباه المريدين والمخلصين نحو المبادئ الأخلاقية السامية التى تتضمنها المسيحية الجديدة .

فالإنسانية فى نظر سان سيمون لا يمكن أن تنحلل من الحافز الدينى والاعتقاد فى وجود الله . ولهذا فهو ينادى بديانة تلائم تطور الإنسانية ، ديانة تهدف إلى وحدة الإنسانية والحب والله . فالإنسانية تعيش فى نفس الوقت حياة زمنية موقوتة وحياة خالدة أبديه ، ، والأساس الذى يربطها بالكائن الأعلى هو الحب . ولا يمكن أن ترتبط به بطريقة أخرى ما دام أن فكرة الإنسان عن الله ليست سوى حالة من الاعتقاد بالوحدة والنظام والتناسق . فديانة المستقبل يجب — فى نظر سان سيمون ومدرسته — أن تكون تبصيراً عن التفكير الجمعى للإنسانية ومظهراً لجميع معتقداتها ونظاماً لكافة تصرفاتها .

يظهر أن أفكار سان سيمون عن الدين والأخلاق متأثرة برواسب التفكير الفلسفى الذى ساد القرن الثامن عشر وبالنزعة العدائية ضد رجال الدين . وقد يكون له العذر إذا أدركنا أنه لا يعادى الدين فى ذاته ولكنه يعادى المسحة الأخلاقية الإرهابية التى تسوده . فهو يريد أن يستبدل بالرهبان والكهنة ورجال الدين العلماء ورجال الفكر الذين يمكنهم أن يأخذوا بناصر الإنسان والذين يمكنهم أن يقودوه إلى طريق التقدم والازدهار . وهو يؤمن بأن هذا الكون لابد أن تسيره قوة علوية خالقة ولهذا فهو

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٨

يقول فى « مشروع إنشاء الموسوعة العلمية الجديدة » (١٨١٠ — ١٨١٣) « إننى أعتقد فى الله ، الله الذى خلق العالم وأخضعه لقانون الجاذبية » من هذه العبارة نجد أنه متأثر تأثراً واضحاً بأفكار نيوتن التى تتلخص فى أن هذا الكون إنما يخضع لقوانين تجريبية علمية أهمها قانون الجاذبية . فمحاولة سان سيمون أن يقلل من شأن الدين ، وأن يجعل من العلوم كهنوت الإنسانية ، إنما هى رواسب للأفكار والفلسفة التى سادت القرن الثامن عشر وللمحاولات التى قام بها فولتير ومونتسكيو وكندرسيه من قبل لتقليد نيوتن وتطبيق قوانينه العلمية على حركة التطور الإنسانى عبر التاريخ .

ومن الغريب أن يغفل سان سيمون أن الدين ظاهرة اجتماعية ، وأنه بعيد كل البعد عن أن يكون من صنع الأفراد . من الغريب أن يفوته أن الدين ظاهرة تلقائية لايد للأفراد فى خلقها وإيجادها وإنما هى من خلق المجتمع نفسه . فلكل شكل اجتماعى دينه الخاص به الذى ينبثق عن طبيعة الشكل الاجتماعى نفسه ، ولهذا وجدت التوتمية فى العشائر لأن هذا الشكل الاجتماعى يلائم الدين بهذه الصورة المعينة ، بينما نجد أن التوتمية تتطور فى الاتحادات لأنها شكل اجتماعى مغاير للشكل الذى يلائم قيام التوتمية ، وفى المدن القديمة كان الدين يقوم على الاعتقاد فى تعدد الآلهة لأن ظروف الحياة وطبيعة الاجتماع فى هذه المدن تستلزم هذا التعدد . ثم قام الدين على التوحيد فى الأمم الحديثة لأن القوانين الاجتماعية فى هذه المجتمعات الحديثة وطبيعة الحياة فيها تساعد على الاعتقاد فى قوة واحدة علوية مسيرة لهذا الكون .

وإذا كان سان سيمون يرى أن المعتقدات الدينية التى سادت أوائل القرن التاسع عشر لا تتفق مع التقدم الفكرى أو العقلى أو طبيعة الحياة الاجتماعية فى المجتمع الحديث ، فإنه من الضرورى أن يدرك أنه لا سبيل له إلى خلق دين جديد ، فليس هناك تدخل للإرادة الفردية من جانب بعض الأفراد فى تغيير دين من الأديان أو خلق دين جديد ، وإنما طبائع الأشياء والقوانين الاجتماعية

التى تسير المجتمعات. الإنسانية هى التى تعمل من تلقاء نفسها على إيجاد الدين بالشكل الذى يتفق مع طبيعة كل مجتمع .

ومع ذلك فإن قول سان سيمون بأن الدين الذى يتفق مع الحالة الوضعية يجب أن يكون دين العلم أو دين نيوتن ، يؤكد لنا أن سان سيمون يؤمن بأن الإنسانية لا يمكنها أن تعيش دون ديانة ما . ونظراً لأن كافة مظاهر التفكير الإنسانى تعتمد على الملاحظة فهو يطالب بديانة تقوم على الملاحظة شأنها فى ذلك شأن كافة الظواهر الأخرى .

وهو عندما ينادى بقيام ديانة جديدة تلائم تطور الإنسانية ، فهو إنما يحاول تخليص المسيحية من الشوائب التى علقت بها فى زمانه ، يريد أن يتخلص من بعض رجال الدين المسيحى الذين اندفعوا وراء الأغراض الدنيوية الزائلة وتخلوا عن الفضائل المسيحية الأصيلة . ويريد فى نفس الوقت أن يبعد المسيحية الجديدة التى ينادى بها عن كل نزعة روحية أو سماوية حتى لا تغرس فى قلوب الأفراد ونفوسهم مشاعر الرهبة والخوف من سوء المصير ؛ يريد أن يقيم أخلاقاً تعتمد على فضائل دنيوية وضعية ، أخلاق ذات التزامات عامة للحاكم والمحكوم على السواء . وهنا يظهر لنا السبب الحقيقى لعداء سان سيمون لرجال الدين وللأخلاق المسيحية التى تقوم على فكرة الخطيئة ، فهو يريد أن يعيد تنظيم المجتمع ويخلصه من حالة الاستبداد والاضطراب والفوضى التى يعانيها ، وهنا أثرت عليه نزعاته الخاصة ونظرته الشخصية فشوهت تفكيره العلمى الوضعى وصبغته بصبغة فلسفية ذاتية تبحث فيما يجب أن يكون .

مؤلفات سان سيمون

توجد طبعتان كاملتان لمؤلفات سان سيمون : الأولى للناشر « رودريج » Rodrigue صدرت فى عام ١٨٣٢ ثم أعيد طباعتها مرة ثانية فى عام ١٨٤١ ، أما الطبعة الكاملة الثانية فيرجع الفضل فى نشرها إلى « لجنة تنفيذ وصية الأب أنفانتان » Les exécuteurs testamentaires d'Enfantin . وهذه الطبعة الأخيرة — التى صدرت فى الفترة من عام ١٨٦٥ إلى عام ١٨٧٨ — تعد أكثر تكاملا من طبعة رودريج ، فهى تشمل ٤٧ مجلداً تقع مؤلفات سان سيمون فى إحدى عشر فقط من بينها ، والباقى يتعلق بمؤلفات أنفانتان . ويلاحظ أن مؤلفات سان سيمون تقع فى الجزء الخامس عشر ، ثم فى الأجزاء من الثامن عشر إلى الثالث والعشرين ، ثم فى الأجزاء من السابع والثلاثين حتى الأربعين ، فهى متداخلة فى مؤلفات أنفانتان .

وفى الفترة من عام ١٨٥٩ إلى ١٨٦١ قام « شارل لمونييه » Charles Lemonnier بنشر مختارات من مؤلفات سان سيمون ، فى ثلاث أجزاء فقط .

وفى عام ١٩٢٥ قام بوجليه Bouglé بنشر مختارات لكتابات سان سيمون يلاحظ فيها جهداً كبيراً فى انتقائها ، ولكن يعاب عليها أنها غير وافية لإعطاء صورة كاملة لأفكار سان سيمون .

وقد استعنا بالطبعة الثانية التى تشمل مؤلفات سان سيمون وأنفانتان تحت عنوان : Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin بصفة أساسية ورجعنا أيضاً إلى المختارات من مؤلفات سان سيمون التى نشرها شارل لمونييه تحت عنوان Oeuvres Choisies كلما وجدنا ذلك أفضل لتدارك بعض ما فات الطبعة الكاملة من تفاصيل وتعليقات لها أهميتها .

وفيما يلى بيان بمؤلفات سان سيمون بحسب ترتيبها الزمنى ، وأفضل طبعة لها :

1. Lettres d'un Habitant de Genève à ses contemporains (1803) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.

رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣)

فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ١٥

2. Essais sur l'Organisation Sociale (1804) in Oeuvres choisies T. III.

محاولات فى التنظيم الاجتماعى (١٨٠٤)

فى مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث

3. Introduction aux Travaux Scientifiques du XIXe siècle 1807-1808) in Oeuvres choisies T. I.

مقدمة للأعمال العلمية فى القرن التاسع عشر (١٨٠٧ — ١٨٠٨)

فى مؤلفات مختارة ، الجزء الأول .

4. Lettres au Bureau des Longitudes (1808) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.

خطابات إلى مكتب المساحة (١٨٠٨)

فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٥

5. Histoire de l'homme. Avertissement (1801) Edité par Gouhier dans le Nef No. 20 de Juillet 1946.

تاريخ الإنسان (تنبيه) (١٨١٠)

نشر بمعرفة جوهييه فى مجلة « لى نف » العدد ٢٠ فى يوليو سنة ١٩٤٦

6. Projet d'Encyclopédie de C.H. Saint-Simon 1810) Publié dans la Revue Socialiste d'Avril 1899.

مشروع موسوعة علمية لكلود هنرى سان سيمون (١٨١٠)

نشر فى المجلة الاشتراكية عدد أبريل ١٨٩٩

7. Mémoire sur la Science de l'homme. (1813) in Oeuvres Choisies. T. II.

بحث فى علم الإنسان (١٨١٣)

فى مؤلفات مختارة . الجزء الثانى

8. Travail sur la Gravitation Universelle (1813) in Oeuvres Choisies. T. II.

بحث عن الجاذبية العامة (١٨١٣)
فى مؤلفات مختارة . الجزء الثانى

9. De la Réorganisation de la Société Européenne (1814) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.

فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى (١٨١٤)
فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٥

10. L'Industrie (1819) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XVIII, XIX.

الصناعة (١٨١٩)
فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٨ ، ١٩

11. L'Organisateur (1820)
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. XX.

المنظم (١٨٢٠)
فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢٠

12. Du Système Industriel (1821).
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, T. XXI, XXIII.

فى النظام الصناعى (١٨٢١)
فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢١ ، ٢٣

13. Catéchisme des Industriels (1823-24)
in Oeuvres Choisies, T. III.

تعاليم الصناع (١٨٢٣ — ١٨٢٤)
فى مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث

14. Opinions littéraires, philosophiques et industriels. (1824) N.B. Z-57065.

آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤)
المكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٧٠٦٥

15. Nouveau Christianisme (1825)
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. XXIII.

المسيحية الجديدة (١٨٢٥)
فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢٣